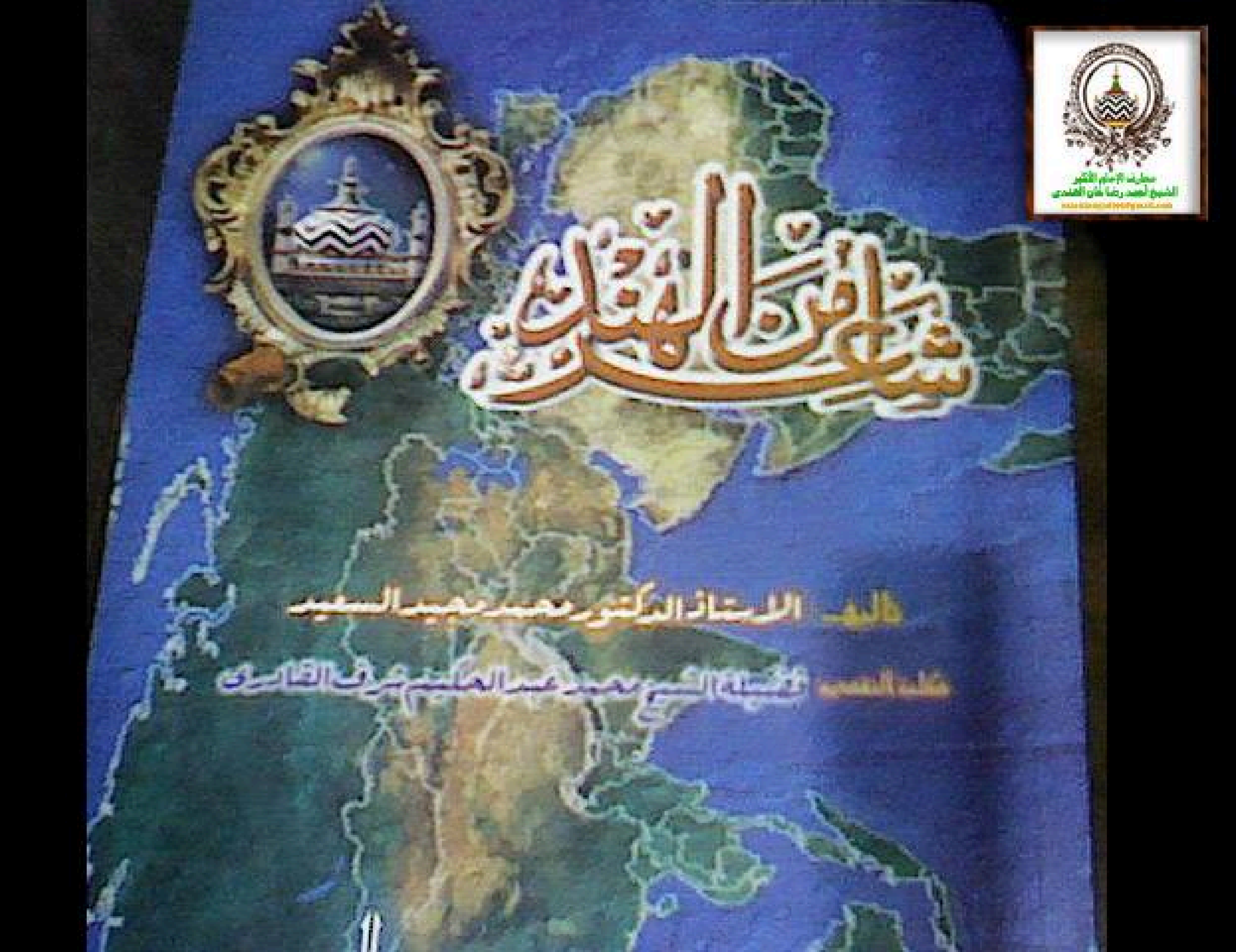

شاعر من الهند
تأليف الأستاذ الدكتور محمد مجيد السعيد
فضيلة الشيخ محمد عبد الحكيم شرف القادري
مطبوعات الإمام الأكبر
الشيخ أحمد رضا خان الهندي



شاعر من الهند

دراسة في ديوان بساتين الغفران للشاعر الإمام أحمد رضا خان البريلوي

تأليف

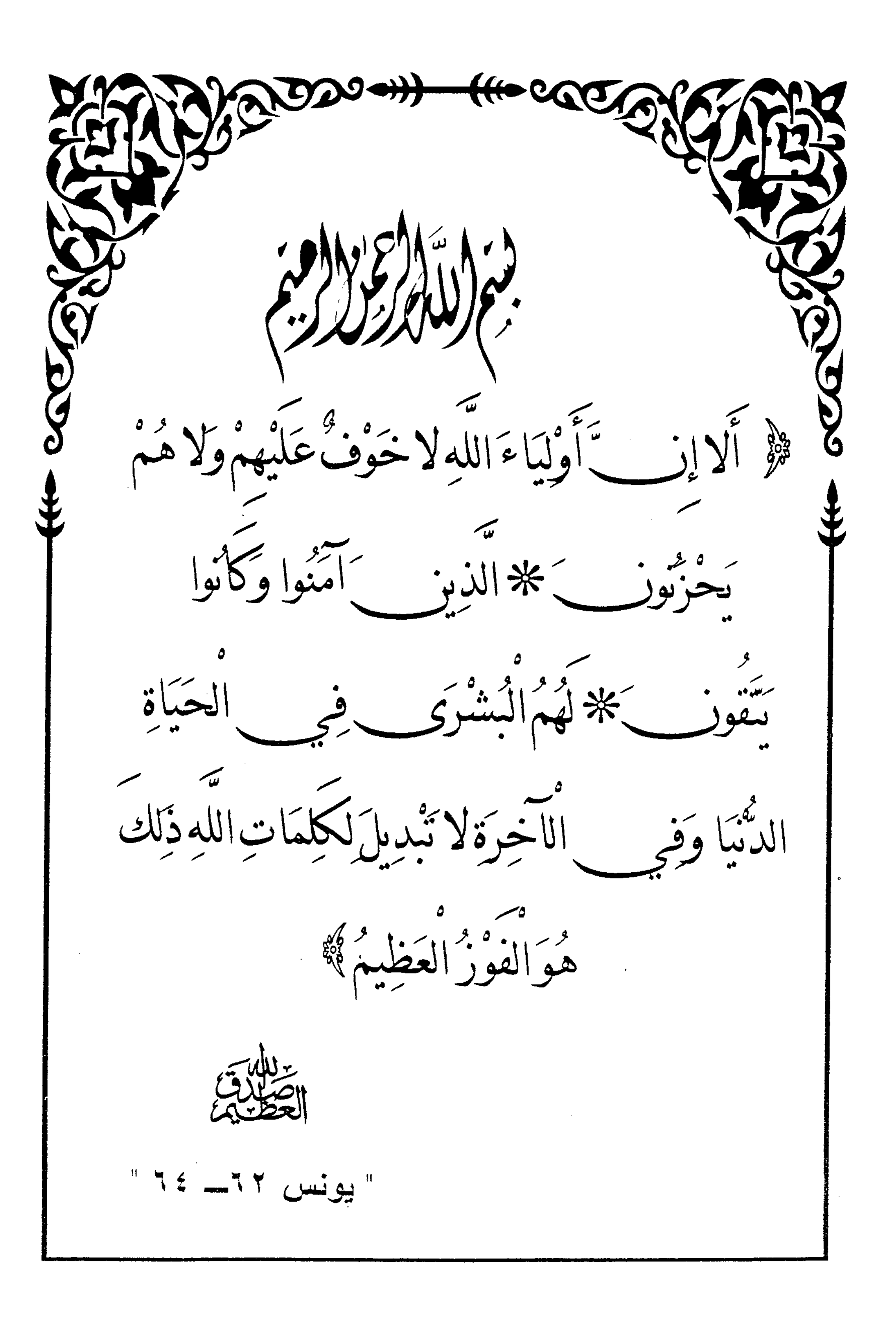
الأستاذ الدكتور

محمد مجيد السعيد

رئيس جامعة صدام للعلوم الإسلامية

بغداد

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾
صدق الله العظيم
" يونس ٦٢ـ ٦٤ "



إلى العالم الجليل ، والشيخ النبيل

المؤمن بالله تعالى والهائم في حب نبيه المصطفى ﷺ ،
والمقلد للصحابة والأولياء الصالحين ،
رضوان الله عليهم أجمعين.

إلى الصوفي التقي النقي الأستاذ

الدكتور أمين بركاتي

أقدم هذا الجهد المتواضع تعبيراً

عما أكنه في فؤادي لحضرته من حبٍّ واعجابٍ وتقدير
حفظه الله ومتعه بالصحة والعمر المديد

أ.د. محمد مجيد السعيد

بغداد

ربيع الأول ١٤٢٤هـ

حزيران ٢٠٠٣م



إلى الصديق الوفي والأخ العزيز

الذي يملأ الايمان فؤاده

وتنبض خلاياه بحب الآخرين

إلى *الشيخ الحاج (أ. ب)*

الذي يعطى بلا منّة ، ويعين بلا حدود

ويعضد دون مباهاة

ومقصده وغايته طاعة الله تعالى وحبه ومرضاته

إليه وإلى كل الصادقين المخلصين

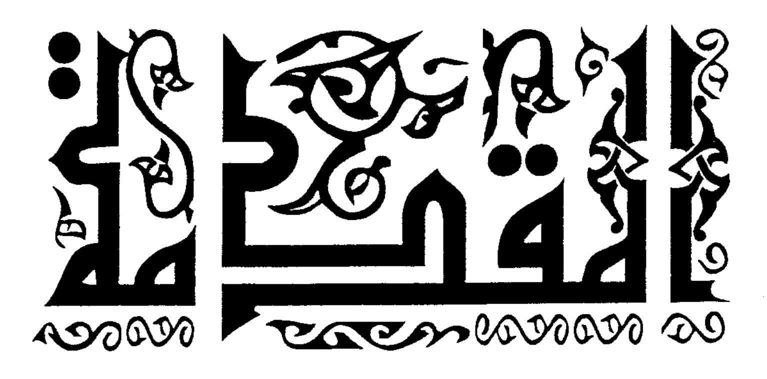
أقدم هذا الجهد المتواضع

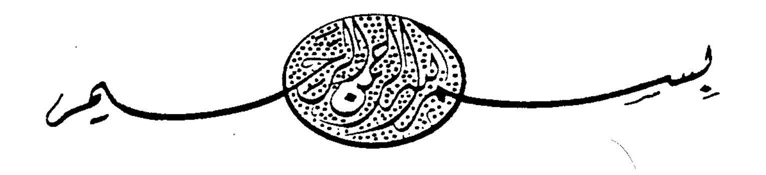
د. محمد مجيد السعيد



فهرست الكتاب




المقدمة



المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، المستحق للحمد والتكبير والتسبيح ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبدالله ﷺ صاحب الوجه المليح واللسان الفصيح ، وعلى آله وأصحابه وأنصاره وعلى التابعين والأولياء الصالحين ومن اهتدى بهديه وسلك دربه ورفع رايته راية الإسلام والدين القويم إلى يوم الدين.

أما بعد ، فمنذ ثلاث سنوات يسر الله لي سبل التعرف على شخصية إسلامية عظيمة ذات مقام عالٍ في مجال البحث والدراسات الفقهية والعقدية والعلمية والأدبية .. شخصية ذات مواهب فذة متنوعة وقدرات فائقة نادرة ، وذهن وقاد وذكاء حاد ، وفكر ثاقب مبدع بنّاء ، إنها شخصية الشيخ **الإمام محمد أحمد رضا خان البريلوي القندهاري البركاتي الهندي** ، ذلك العلامة الفذ الذي تندر أن تلد الأيام مثله ، لقد كان شعلةً متوهجةً ، ونبراساً متوقداً لا يعرف الفتور أو الخمول الخبوت والأنطفاء.

فقد عرف بالجهد المتواصل والمثابرة الدائمة وسعة الاطلاع والتبحر في علوم شتى بلغت أكثر من خمسين علماً وفناً ، منها العلوم الإسلامية واللغوية ، ومنها العلوم العقلية والفلسفية والرياضية والفلكية والفيزيائية وغيرها فكان ثمرة عطائه ونتاج جهده تأليف أكثر من ستمائة كتاب ، وقيل ألف كتاب ونيف ، ولكن المنشورات منها يزيد عن الثلاثمائة عنوان.

ولم تقتصر جهوده الإسلامية على المطالعة والتأليف والافتاء بل توسعت دائرة عطائه لتشمل ميدان المواجهة ؛ فكانت له مواقف عنيدة وصلبة في ساحةٍ واسعة وبين أقوامٍ كثرٍ من غير المسلمين ومن المنحرفين عقائدياً وفكرياً من دعاة الإسلام زوراً وكذباً ، حتى قضى عمره كلّه في نضال وكفاح وصراع ومقاومة

متحدياً ومتصدياً لتلك التيارات وأولئك الكفرة المارقين .. سلاحه الايمان بالله وما يحمله من فكر مبدئي إسلامي سليم ونقي. لقد كان لتلك الشخصية العظيمة والكبيرة أثر كبير في نفسي ، وهَجَ في أعماقها الحب والاعجاب ، فما كان عندي من شيء أقدمه في خدمة هذه الموهبة المتحركة المتمثلة بكيان انسان هندي ، الا أن أنقل هذا الحب والاعجاب إلى أبناء عروبتي من خلال التعريف بشعره العربي الذي نشره مؤخراً أحد المعجبين به من اخواننا المصريين الأستاذ الدكتور حازم محمد أحمد المحفوظ .. تحت عنوان (بساتين الغفران) ، وأن أعرف به وبمكانته الأدبية والشعرية في الوسط العربي الذي أرى أن الكثير من أبنائه لا يعرفون شيئاً عن هذا العالم المسلم الكبير الذي أحسبه مفخرةً للمسلمين قاطبة ، وعبقريةً منحها الله لامة الإسلام ولنصرة دين نبيه المصطفى ﷺ .

إن هذا العمل هو جهد المقل وهو في الحقيقة لا يمثل سوى مساحة صغيرة ضئيلة من الميادين المعرفية الواسعة التي كان للعالم الإمام أحمد رضا خان البريلوي نشاط وجهود وعطاء فيها.

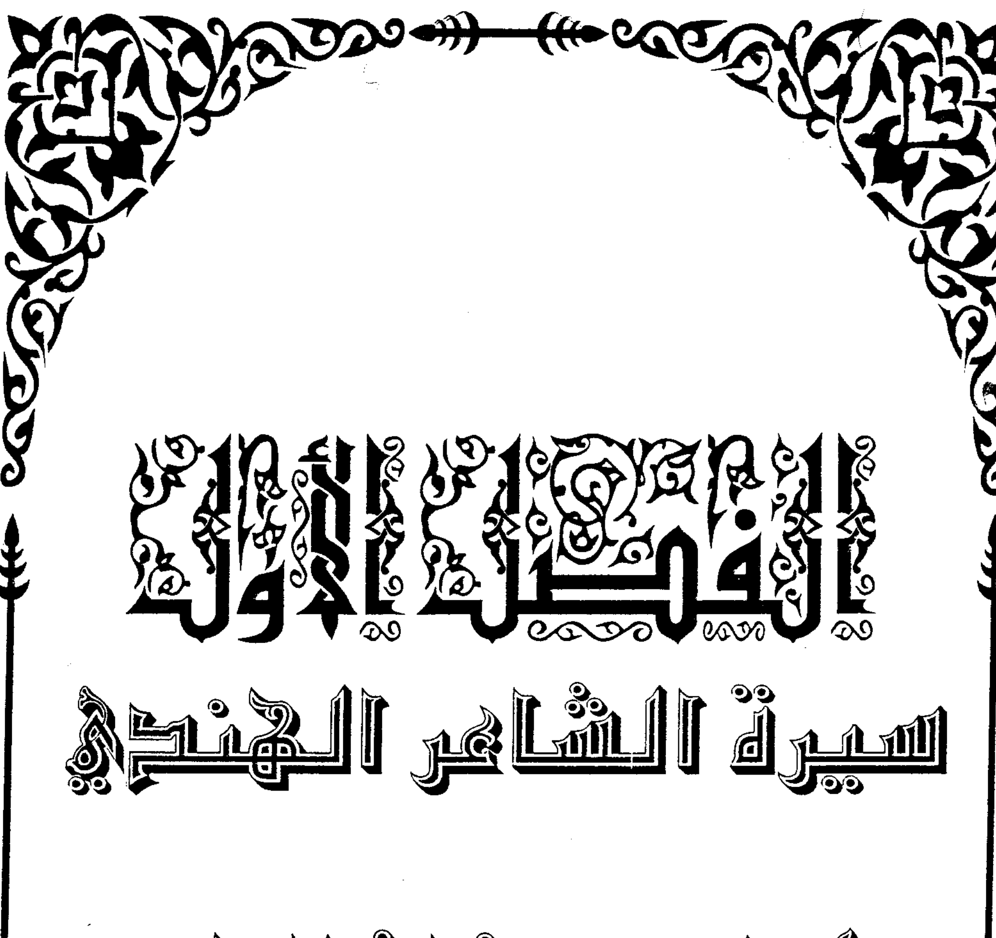
إنّ المسلمين في حاجة ماسة إلى التشبث بمثل هذه الشخصية الفذة وأمثالها ، والاهتمام بتراثهم ونتاجاتهم ولاسيما الطروحات الفكرية والعقدية المعاصرة والمجددة ، وما تقدمه من اجتهادات نحن بأمس الحاجة إليها ، في زمن حوصر فيه الفكر الإسلامي وحورب بشتى الوسائل من قبل الأعداء التقليديين وغيرهم من أصحاب البدع والدعوات اللادينية الملحدة، وفي هذه المناسبة أدعو الأخوة العلماء المسلمين إلى التوجه لترجمة نتاجات الإمام الشيخ أحمد رضا خان إلى اللغات الأخرى من عربية أو فارسية أو انكليزية أو فرنسية أو غيرها لاجل تقديم آراء وأفكار هذا العالم المجدد إلى الناس قاطبة والتعريف به وبنتاجاته المنوعة التي تصب كلّها في خدمة الفكر الإسلامي واغنائه.

قامت دراستنا لشعر الشيخ أحمد رضا خان البريلوي البركاتي في ديوانه العربي (بساتين الغفران) على **مقدمة وخاتمة تضم بينهما ثلاثة فصول** ، **أقتصر الأول منها على حياة الأديب الشاعر وسيرته ومؤلفاته.** أما **الفصل الثاني** فقد تناول **أغراضه الشعرية** التي هي المديح والفخر والهجاء والرثاء ، وكانت حصة **الفصل الثالث** (الأخير) **دراسة الجوانب الفنية للشعر** وبدورها اهتمت بنقطتين أساسيتين هما الشكل والمضمون أو اللفظ والمعنى.

نسأله تعالى أن ييسر لنا سبل عملنا من أجل خدمة الإسلام والمسلمين ، وأن يجعل َالتوفيق حليفنا وأن يجعل هذا الكتاب نافعاً ومفيداً وصادقاً ومخلصاً في تحقيق غايته ومقاصده ، فما كان قصدي ــ ان شاء الله ــ الا التعريف بهذا العَلم الهندي الكبير وخدمة الشريعة الإسلامية وأبنائها الصادقين المؤمنين.

ومن الله التوفيق

الأستاذ الدكتور محمد مجيد السعيد
الجامعة الإسلامية
بغداد



الفصل الأول

سيرة الشاعر الهندي

أحمد رضا خان

الشاعر الهندي أحمد رضا خان

حياته :

لقد عرّف بشاعرنا الشيخ الأديب والفقيه العلامة محمد أحمد رضا خان القادري البركاتي البريلوي. معظم الذين نشروا كتبه ومؤلفاته العربية والذين ترجموا نتاجه من اللغة الأردية، حتى غدا علماً بارزاً وشخصية لامعة عند عموم المثقفين من العرب ناهيك عن غيرهم، لذلك فانني في هذه الدراسة لا أريد أن أتوسع في تفاصيل حياته ، وتتبع نشاطاته العلمية ومواقفه تجاه أعداء الإسلام وتجاه الاستعماريين من الإنجليز . وسأكتفي بالإشارة إلى أهم ملامح سيرته .. وأبرز نتاجه وعطائه المعرفي والشعري بشكل خاص.

اسمه وعائلته :

هو الشيخ العالم المفتي محمد أحمد رضا بن تقي علي خان بن رضا علي خان الافغاني البريلوي النقشبندي القادري البركاتي[1]وله أنساب وألقاب عديدة منها :

---

[1] العلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسني (ت١٣٤١هـ - ١٩٢٣). نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ج٨ ص٣٨٠ ، قام بمراجعته واكماله ابن المؤلف السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ، كراجي - التاريخ بلا.
وانظر تفصيل نسبه ، من هو أحمد رضا البريلوي ؟ للأستاذ شجاعت علي القادري ص١٦ أكاديمية رضا - لاهور باكستان ١٤١٢-١٩٩١.
انظر : المنظومة السلامية للامام أحمد رضا خان ص٧ ترجمة حازم محمد أحمد محفوظ شرحها ونقلها إلى العربية الدكتور حسين مجيب مصري مركز أهل سنت بركات رضا فور بندر غجرات الهند - ط١ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠١م.

المجدد، شيخ الإسلام والمسلمين ، رئيس المفسرين إمام المحدثين ، امام أهل السنة والجماعة في شبه القارة ، أبو حنيفة عصره وغيرها[١].

ويرجع أصله إلى قبيلة برهيج باتان احدى القبائل المعروفة في مدينة قندهار ببلاد الافغان[٢].. هاجرت عائلته في عصر الدولة المغولية إلى الهند واستوطنت في لاهور ثم انتقلت إلى مدينة دلهي وبعدها استقر بها المقام في مدينة بريلي الواقعة في اقليم يوبي بالهند[٣].

مولده :

كان مولده في العاشر من شوال سنة ١٢٧٢هـ الموافق ١٤ حزيران ١٨٥٦م بمدينة بريلي ، وقد أرخ هو نفسه ذلك باحتساب الآية الكريمة ﴿ أُوْلَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ.. ﴾(سورة المجادلة آية رقم ٢٢).

نشأته :

نشأ شاعرنا في بيئة علمية ثقافية فقد أشارت المصادر ان جده كان عالماً كبيراً وزاهداً متصوفاً ، وكذلك والده حيث عرف عنه تعلقه بعلوم الحديث والتفسير والتأليف وقد ساهما – الأب والجد – بتوجيه الوليد وتربيته على خلق إسلامي رفيع، فنشأ محباً للعلم والأدب متخلقاً بسلوك أخلاقي قويم .. فحفظ القرآن الكريم

---

(١) انظر مثلاً كتاب العارف بالله سيدي الامام محمد أحمد رضا خان والعالم العربي تأليف حازم محمد المحفوظ ص٢٣ وما بعدها ؛ رضا نديشن – لاهور – باكستان ط٢ ١٤١٩هـ – ١٩٩٨. وسوف نختصر العنوان مستقبلاً إلى الإمام محمد رضا خان.

وانظر : المنظومة السلامية ص١٠.

(٢) أنظر الشيخ أحمد رضا خان البريلوي الهندي : شاعراً عربياً – تأليف الشيخ ممتاز أحمد سديدي الأزهري ص٩٥ ، مؤسسة الشرف – لاهور – باكستان ، ١٤٢٢-٢٠٠٢م.

(٣) نفسه ص٩٤.

وأتقن علم الحديث وتعلم العربية والفارسية اضافة إلى الاردية وذلك لان هاتين اللغتين ــ وحسب توجيه والده ــ تضمان كنوز تراث الدين الإسلامي ولابد لمن يريد أن يتبحر ويعرف دقائق هذا الدين من تعلم وإتقان هاتين اللغتين ، وبالفعل فقد حقق فيهما معرفة واجادة تامتين مكنته من القراءة والكتابة فيهما شعراً ونثراً.

وقد وصفته المراجع بالذكاء والفطنة والموهبة المتوقدة وساعدته تلك الصفات على الاحاطة بكثير من العلوم الدينية والدنيوية ، وهي نفسها دفعت والده إلى اجازته الفتوى وهو لما يزل في عمر الثالثة عشرة(١).

أساتذته

تلقى شاعرنا علومه ومعارفه من جده وأبيه أولاً ثم بعد ذلك كانت له فرص التعلم على أيدي علماء كبار فمن أساتذته : المرزا غلام قادر البريلوي ، والشيخ عبد العلي الرامبوري والشيخ أبو الحسين أحمد النوري والشاه آل رسول مارهروي والشيخ أحمد بن زيني دحلان المكي والشيخ عبد الرحمن مكي والشيخ حسين بن صالح(٢).

تلاميذه

يعد ولداه حامد ومصطفى من أنبه تلاميذه وأكثرهم تأثراً به واستفادةً من علمه ، ولقد سجل الدكتور محمد مسعود أحمد أسماء ثلاثة وعشرين من مشاهير تلاميذه وخلفائه ومريديه(٣) وكذلك أورد تلميذه وخليفته محمد ظفر الدين البهاري أسماء أكثر من عشرين شخصية من العلماء الذين يعدون من أصحاب مترجمنا(٤).

---

(١) انظر : من هو أحمد رضا ؟ ص١٧.

(٢) من هو أحمد رضا ؟ ص١٨ ، الإمام محمد رضا خان ص٢٨ و٢٩.

(٣) أنظر : الامام محمد رضا خان ص٤٨.

(٤) نفسه ص٤٩.

حياته الأسرية:

تذكر كتب التراجم انه تزوج من السيدة ارشاد بيجم بنت الشيخ أفضل حسين ورزقه الله منها ولدين وخمس بنات ، والولدان هما حامد رضا خان الملقب بحجة الإسلام والثاني مصطفى رضا خان الملقب بالمفتي الاعظم ، وكانا عالمين أديبين ولهما مؤلفات عديدة في مجالات العلوم الدينية[١].

وفاته :

كانت حياة مترجمنا حافلة مملؤة بالعمل والنشاط والعطاء الدائم الذي لا يعرف الركون أو التوقف فقد روي عنه انه كان قليل الطعام وقليل للنوم فكان وقته جله منصرفاً إلى العَلَم والتعلم والتعليم ، وإلى الكتابة والقراءة والتأليف. ولولا تلك الهمة وذلك الجهد المتواصل لما استطاع مترجمنا أن يؤلف كل ذلك التراث الضخم الذي بلغ المئات من الكتب والدراسات والمقالات وقد دام ذلك لخمسة وستين عاماً حينما انطفأت شعلة ذلك العَلَم وخبأ ضوؤها وتوقفت أنفاسها .. فاختطفته المنون وحرصت منه أمة كانت في حاجة ماسة اليه .. وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر صفر عام ١٣٤٠هـ الموافق ٢٨ تموز (اكتوبر) ١٩٢١م وقد تنبأ هو نفسه بتاريخ وفاته قبل أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً حينما استخرج على رحيله بحساب الجمل من الآية الكريمة ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ (سورة الانسان آية رقم ١٥).

وحساب هذه الآية يكون ١٣٤٠هـ وهي سنة رحيله[٢] ، وقد اهتزت مدينة بريلي للنبأ الكبير واحتشد الناس باعداد غفيرة من أهل السنة والجماعة لتشييعه ... وقد أصبح الاحتفال السنوي بذكرى رحيله تقليداً وعادة لا تزال قائمة حتى اليوم.

---

(١) أنظر : نفسه ص٤٦.

(٢) أنظر : نفسه ٤٧.

علومه ومؤلفاته

كان شاعرنا محمد أحمد رضا خان يتمتع بعبقرية وألمعية وبموهبة نادرة وذكاء حاد وقدرة فائقة على الحفظ والاسترجاع وسرعة بديهة منذ طفولته ونعومة أظافره وأيام شبابه وكهولته[١]، وقد أهلته هذه الامكانات الذهنية أن يمنح اجازة الفتوى وهو لما يزل في الثالثة عشرة من عمره .. وهي درجة علمية لا يطالها الآخرون الا بعد جهد ومشقة ومعاناة ... فكان دؤوباً يصل الليل بالنهار قارئاً وباحثاً ومؤلفاً .. لم يتحدد نشاطه واهتمامه بعلمٍ أو بفنٍ واحد معين بل كان متنوع المعارف والاهتمامات .. أخذ بعضها عن والده وأساتذة وبعضها الآخر اكتسبها وتعلمها بجهده الشخصي ومتابعاته الذاتية حتى بلغت تلك الفنون والعلوم أربعة وخمسين علماً وفناً منها علوم القرآن الكريم والحديث وأصول الحديث والفقه وأصول الفقه والتفسير والعقائد والنحو والصرف والحساب والهندسة والمنطق والفلسفة وعلم القراءة والتجويد والتصوف والتاريخ والسير واللغة والأدب والجبر واللوغارتمات والجفر والزيجات وغيرها وقد كان له في كلّها أو جلّها تحريرات وتعليقات[٢]، ويمكن معرفة تفاصيل ذلك في كتاب السيد خازم محمد محفوظ[٣] ، وقد ذكر ابنه حامد رضا خان أن عدد مؤلفات والده تربو على أربعمائة كتاب في حين ذكر تلميذه الشيخ ظفر الدين بهاري أن مؤلفات أستاذه تزيد على ستمائة.. ومنهم من أوصل الرقم إلى ألف كتاب[٤].

---

(١) أنظر : المنظومة السلامية ص٣١.

(٢) من هو أحمد رضا ؟ ص٢٢.

(٣) الامام محمد أحمد رضا خان والعالم العربي ص ٣٧ و ٣٨.

(٤) أنظر : المنظومة السلامية ص٣٢.

ومهما يكن من أمر ومهما كان عدد مصنفاته فان ذلك يؤشر قدرة عالية على التأليف والكتابة ويمثل تفوقاً وغزارة في العطاء العلمي والثقافي للمترجم ، ويمثل عبقرية مبدعة جمعت ((**بين العلوم العقلية والنقلية ، الوهبية والكسبية ، ولم تكتف بحفظ هذه العلوم وأخذها بل زادت عليها أصولاً وفروعاً**))[1]، ويبدو ان شاعرنا تعلم بعض تلك العلوم والفنون ((**ليعرف خيرها وشرّها فيصرف الخلق عن الشرّ ويدعو إلى الخير والصلاح**))[2]. وفي الوقت نفسه عزفت نفسه عن بعض تلك العلوم اما لأنها تخالف الشرع أو لانه لم ير فيها كبير فائدة يقول : ((تركت الفلسفة الأولى لاني لم أر فيها الا زخرفة ورأيت ظلمتها تأتي بالرين وتجلب الشين وتسلب الدين ، واشتغالي بالهندسة والزيج واللوغارتمات وفنون الرياضي ليس ليكون فيه ارتياضي بل انما التوجه ترويحاً للقلب على جهة التفكه ، نعم ربما أقصدها لعلم التوقيت وتحديد الاوقات نفعاً للمسلمين في الصوم والصلاة))[3].

وأمام هذا الفيض والعدد الهائل من المؤلفات يصعب علينا أن نتعرض له بالتفصيل والتعريف والتحليل ، وانما سنكتفي بالاشارة إلى بعض مؤلفاته المهمة التي ذاع صيتها وانتشرت في أوساط العلماء والمهتمين في شبه القارة الهندية وفي باكستان وبنغلاديش وفي غيرها من بلاد المسلمين ، فمن أهم مؤلفاته :

(١) كتاب العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية

وهو في اثنى عشر مجلداً ضخماً ويتألف من أكثر من ستة آلاف صفحة وقد طبع لاكثر من مرة .. وهذا الكتاب يضم معظم فتاواه واجتهاداته الفقهية على وفق

---

(١) من هو أحمد رضا ص٢٣.

(٢) نفسه ص٢٤.

(٣) نفسه ص٢٤ نقلاً عن كتاب أحمد رضا خان : الاجازات الرضوية لمبجل المكة البهية — ص٣٧ مخطوط ديوان متيني ص٢.

مذهب أبي حنيفة[١] وحظي المؤلف بسبب هذا الكتاب منزلة رفيعة بين فقهاء عصره حتى لقب بابي حنيفة العصر وعدّ من أكبر وأشهر الفقهاء والمجتهدين[٢] ، وقد أشاد بهذا العمل الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ووصف مترجمنا بانه ((**ينذر نظيره في عصره في الاطلاع على الفقه الحنفي وجزئياته**))[٣].

(٢) كتاب ((كنز الايمان في ترجمة القرآن))

وهو ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الاوردية وتعد هذه الترجمة أجمل وأكمل عمل في حقله وهي مفخرة لهذا العالم الشاعر ودليل على سعة اطلاعه وتبحره باللغتين العربية والاوردية ، فنالت استحسان علماء أهل السنة والجماعة وامتدحوها وأثنوا عليها وعلى صاحبها لما تمتلكه من مجهود كبير وعلم غزير وايمان صادق .. فشاعت بين مسلمي الهند وباكستان وبنغلاديش ثم ترجمت إلى عدة لغات منها الانجليزية والسندية والبنغالية وطبعت عشرات الطبعات[٤]. وقد اعتمد الازهر الشريف هذه الترجمة وسمح بنشرها[٥].

(٣) جدّ الممتار على ردّ المحتار المعروف بـ (حاشية الشامي)

---

(١) أنظر المنظومة السلامية ص٣٣.

(٢) أنظر : صفوة المديح : ص١٦، للشيخ محمد أحمد رضا القادري البريلوي ، ترجمة الدكتور حازم محمد أحمد المحفوظ ونقله إلى الشعر العربي الدكتور حسين مجيب المصري ، وهو في الأصل بعنوان (حدائق بخشش) ــ دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ــ القاهرة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٣) نزهة الخواطر ج٨ ص٤١.

(٤) أنظر :بساتين الغفران أو (الديوان) للامام محمد رضا خان ص (د) من المقدمة ، جمع وتحقيق السيد حازم محمد أحمد المحفوظ ، طبع اكاديمية رضا مجمع بحوث الامام أحمد رضا ــ كراتشي ــ باكستان ــ سنة ١٩٩٧م ــ ١٤١٨هـ ، المنظومة السلامية ص٣٣ .

(٥) أنظر : صفوة المديح ص١٥.

وهذا الكتاب في الاصل هو حاشية على كتاب (ردّ المحتار) أو حاشية الشامي للعلامة ابن عابدين الشامي ، الشيخ السيد محمد أمين عابدين بن السيد الشريف عمر عابدين وينتهي نسب الشريف إلى الامام جعفر الصادق رضي الله عنه [١] المولود في دمشق عام ١١٩٨هـ ، وكان من كبار الفقهاء والمحدثين في زمنه وله مصنفات كثيرة تصل إلى (٥٣) مؤلفاً[٢]. وكانت وفاته عام ١٢٥٢هـ في دمشق [٣].

والكتاب يضم مجموعة من فتاوى الإمام أحمد رضا خان وارائه الفقهية .. وتعد من مآثر مترجمنا ((**التاريخية العظيمة ومن درر الفقه الغالية يفتخر به الفقه الإسلامي، وحق له الافتخار بهذا العمل الفريد فلم يظهر كتاب إلى الآن على (ردّ المحتار) مثل هذا الكتاب ... وهو يوضح (ردّ المحتار) الشهير بالشامي توضيحاً جميلاً ويكشف عن عباراته العويصة ويحل مواضعه المغلقة ويتدفق بالبحوث الوجيزة النادرة والتحقيقات العجيبة الأنيقة**))[٤].

فكان يناقش الشامي ويصحح ويرجح بنصوص صريحة ودلائل قوية[٥].

---

(١) جد الممتار على ردّ المحتار المعروف بحاشية الشامي ، ج١ ص١٥ للإمام أحمد رضا خان القادري البريلوي ــ صححه وحققه أعضاء المجمع الإسلامي بمباركفور أعظم كره الهند الناشر ــ ادارة تحقيقات امام أحمد رضا ــ كراتشي ــ باكستان ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٥م.

(٢) أنظر نفسه ج١ ص١٦.

(٣) نفسه ١/ ٢٢.

(٤) نفسه ج١ ص٢٨.

(٥) يمكن الاستزاده عن ارائه وردوده وتصحيحاته للشامي في المصدر السابق ج١ ص٥٦ وما بعدها.

الكتاب بجزئين وقد حققه واعتنى بتصحيحه أعضاء المجمع الإسلامي بمباركفور ونشرته ادارة تحقيقات امام أحمد رضا ـ كراتشي ـ باكستان ،وكانت الطبعة الثانية منه سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٥م.

وليس من غرض هذا المؤلف التعرض والتعريف بجميع نتاجات مترجمنا .. ولكن ما ذكرناه سابقاً عن مؤلفاته الثلاثة تعطى ضوءاً كافياً لمعرفة مكانته ونبوغه وتفوقه وبخاصة في الفقه .. والفقه الحنفي خاصة ، ويكفي أن نقرأ تقريض العلامة الدكتور اقبال شاعر الهند ومفكرها عن مترجمنا حيث يقول ((**لم يظهر فقيه طباع ذكي مثله (يعني الإمام أحمد رضا خان) في عهد الهند الاخير وليس رأيي هذا الا بعد أن طالعت فتاواه ، وتشهد فتاواه بذكائه وفطانته وجودة طبيعته وكمال تفقهه وتبحره العلمي**)) [1].

ومن العلماء العرب المسلمين نسمع تقويم الشيخ زيني دحلان خادم العلماء بالمسجد الحرام لمترجمنا حيث يقول ((**صاحب التصانيف الدالة على وفرة اطلاعه وغزارة مادته وطول باعه ، الامام الذي ما ترك باباً مغلقاً الا فتح صياصيه ولا أمراً مشكلاً الا أوضح مبانيه الأستاذ الفاضل الهمام الكامل**)) [2].

شعره :

لقد كانت لشخصية أحمد رضا خان الموسوعية نشاطات عديدة في مجالات مختلفة وفي علوم وفنون متنوعة بلغت أكثر من خمسين فناً وعلماً .. ومن هنا يصعب على الباحث أن يتناول جميع تلك النشاطات بالبحث والتحليل والدراسة ، ولذا فاننا رأينا أن نفرد شعره العربي فقط لدراسة مستقلة لعلنا نتمكن من الوقوف عند هذا الفن بعناية أكبر وبتأمل ودراسة أشمل..

---

(١) نفسه : ٤٢/١.

(٢) نفسه ٤٦/١.

من المعروف ان مترجمنا كان يتقن الاوردية (لغة الام) والعربية والفارسية اتقاناً كاملاً ويجيد التأليف والكتابة والتحدث فيها .. كما انه ، ومن خلال تراثه الادبي ، نظم في تلكم اللغات جميعها .. وخلف مجاميع شعرية فيها ... هي :

١- المنظومة السلامية في مدح خير البرية ﷺ

وهي منظومة في الأصل باللغة الأوردية قام بترجمتها إلى العربية السيد حازم محمد أحمد محفوظ ، واعتنى بشرحها ونقلها إلى الشعر العربي الدكتور حسين مجيب المصري. ونشرت عام ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م ، بواسطة مركز أهل سنت بركات رضا.

تقوم هذه المنظومة على مديح النبي محمد ﷺ وذكر معجزاته وصفاته وأفعاله، ولذا فانها تسجل أحداثاً وأعمالاً مستمدة من القرآن الكريم أو من أحاديث النبي ﷺ وسيرته ، ومما جاء في الكتب الموثقة عن حياة سيد المرسلين وأخباره ، وقد أحسن الشارح بتوضيح ذلك في هوامش المنظومة. ويتميز مديحه فيها بعواطف فياضة وعشق نبوي مرهف دافعه حب المصطفى ﷺ وشغفه بذكره العطر..

أما عنوانها " السلامية " فهو ..مستمد من معنى الصلاة على النبي ﷺ لان السلام والصلاة متصلان .. ومتداخلان في المعنى .. فالسلام على النبي ﷺ هو الصلاة عليه أو في هذا المعنى ، يقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(سورة الاحزاب ، الآية ٥٦) وفي ذلك أيضاً جاء حديث نبوي برواية أبي هريرة ... قال ﷺ ***[صلوا على أنبياء الله ورسله ، فان الله بعثهم كما بعثني ، صلوات الله وسلامه عليهم]*** [١].

---

(١) السلامية ص٧٩.

تتكون القصيدة من ١٧١ مقطعاً وكل مقطع ينتهي بردة أو لازمة أو قفل يتكرر بلفظ (عليه الصلاة والسلام) وتبدأ القصيدة بالمقطع الآتي :

سلام على صفوة الأنبياء نبي الهدى رحمة للسماء[1].

عليه الصلاة عليه السلام

وتنتهي بقوله :

ومنى الرضا ليتهم يطلبون ((سلاميتي))[2] **تلك مَن يسمعون**[3].

عليه الصلاة عليه السلام

ونلاحظ انه ذكر اسمه الشعري (الرضا) في المقطع الاخير على عادة شعراء الأوردي والفارسي .. كما ذكر اسم المنظومة (السلامية).

٢- قصيدتان رائعتان :

وهما قصيدتان باللغة العربية من نظم شاعرنا ، الأولى منهما دالية مطلعها :

الحمد للمتوحد بجلاله المتفرد[4].

والثانية نونية مطلعها

رنّ الحمام على شجون البان ياما أميلم ذكر ببيض البان[5].

وقد نظمهما عام ١٣٠٠هـ .. ويحدثنا الشاعر نفسه عن عدد أبيات هاتين القصيدتين وسبب نظمهما ما نصه ((**الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الحبيب وأهل بيته أجمعين ، قصيدتان مشتملتان على ٣١٣ ثلاثمائة وثلاثة عشر**

---

(١) نفسه ١٠٩.

(٢) سلاميتي .. السلامية عنوان المنظومة.

(٣) السلامية ١٣٥.

(٤) بساتين الغفران ص٥٨.

(٥) نفسه ٧٢.

شعراً بعدد أصحاب بدر ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، في مدح تاج الفحول السيف المسلول على أعداء الرسول ﷺ مولانا المولوي فضل الرسول العثماني القادري الحنفي البدايوني رحمه الله تعالى عليه ، تولى غرس أشجارهما واجتناء ثمارهما وفق أزهارهما الفقير إلى ربه المقر بذنبه أحمد رضا القادري البركاتي البريلوي غفر الله له ذنبه كله دقه وجله آمين))[١].

وقد نشرتا عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م بعناية الأستاذ محمد أحمد المصباحي كما عليه حال صورة المخطوط ، الذي يظهر جمال خط شاعرنا وموهبته في هذا الفن[٢].

وقد أعيد طبعهما ثانية عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م في بغداد[٣] بتحقيق وشرح وتعليق الأستاذ الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي ، وللعلم فان هاتين القصيدتين قد نشرتا ضمن ديوان الشاعر (بساتين الغفران) .. الذي سوف نتناوله بهذه الدراسة.

---

(١) أنظر الديوان ص٥٦.

(٢) ينظر نفسه ٥٧.

(٣) طبع الكتاب بمطبعة الطيف ٢٠٠٢م ، وعلى نفقة المجمع الرضوي العليمي بالهند.

٣- صفوة المديح أو حدائق بخشش :

وهو ديوان شاعرنا الواسع الذي جمع شعره باللغة الاوردية وعنوانه في لغته الاصيلة (حدائق بخشش) بمعنى حدائق الغفران ، وقد صدرت الطبعة الأولى منه بجزئين في حياة ناظمه عام ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م وأعيد طبعه أكثر من مائة مرة[١]، وترجم لاول مرة إلى العربية من قبل الدكتور حازم محمد أحمد محفوظ ونقله إلى الشعر العربي الدكتور حسين مجيب المصري سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م وطبع في دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة وقد ارتأ المترجمان أن يكون اسمه في العربية (صفوة المديح) تقريراً منهما أن العنوان الجديد أكثر استجابة للذوق العربي ، وفيه دلالة واضحة على مضمون الكتاب الذي هو **((في مدح الرسول ﷺ ، وآل البيت والصحابة والأولياء .. وعبر فيه على ان قلبه يهوى إلى العرب ، وهو يكثر حين يمدح ﷺ من وصف شمائله وشفاعته واسرائه ومعراجه))**[٢].

ويحدد المترجم ملامح هذا الديوان وأهم خصائصه وموضوعاته فيشير إلى انه يتضمن مناجاة لكنها مناجاة خالية من شطحات بعض الصوفية وشططهم ، ويندر ذكر الخمرة فيه قياساً بالمتصوفة الذين يكثرون من ذكرها والتلذذ بنشوتها وتأثيرها. وان الشاعر التزم فيما يسمى عندهم بالتخلص أو المخلص الذي هو ذكر اسم الشاعر في نهاية كل منظومة ، كما أشار المترجم إلى ان الديوان ضمّ مجموعة مدائح في الشيخ عبد القادر الكيلاني ؛ منظومات الكتاب تتنوع في أسلوبها ومناهجها وتتوزع بين مستويات وقصائد وغزليات ورباعيات .. وغيرها ، وان بعض تلك

---

(١) أنظر صفوة المديح ص١٨.

(٢) نفسه ، ص١٩.

المنظومات جاءت بلغة فارسية[١]، ويقرر المترجم أن شاعرنا كان له ((**نزعة دينية لا خفاء فيه ، ولكنه يكثر من ذكر الطبيعة في جمال زهرها وغناء بلبلها وتفتح براعمها ، وله ولوع بذكر الرياض المخضوضرة والورود البسامة مما يضفي على كلامه سمة البلاغة**))[٢].

وفي هذا الديوان أتى الشاعر ((بقصيدة فريدة لا نظير لها في اللغة الاردية فالامام أظهر موهبته في أبدع صورة فانه جمع أربع لغات من العربية والفارسية والاردية والهندية في كل بيت من أبيات هذه المنظومة))[٣].

لم يأت نظيرك في نظرٍ **مثل تونه شد بيدا جانا**[٤].

....

فصدر البيت مكون من اللغتين العربية والفارسية في حين يشتمل العجز على اللغتين الهندية والأردية .. وهكذا يستمر الشاعر على هذا النسق من التلميع والتعشيق بين اللغات الأربع حتى نهاية القصيدة مع حفاظه على ((**براعة اللغة والبيان وفصاحة الأسلوب وسلاسته والحرقة والفناء في حب الرسول ﷺ**)) [٥].

ويضم الديوان بجزئيه ٢٨٤٠ بيتاً شعرياً.

---

(١) أنظر : نفسه .

(٢) نفسه.

(٣) بساتين الغفران ص١١.

(٤) أنظر نفسه ص٢٨٠ وانظر نماذج أخرى ص٢٦٨ وما بعدها : وهذه النصوص اختارها محقق الديوان العربي من ديوان الشاعر الاردي (حدائق بخشش) وألحقها بالديوان العربي.

(٥) بساتين الغفران ص١١.

ولسنا هنا بصدد الوقوف عند ديوان " حدائق بخشش " أو صفوة المـديح ، كما يحلو للمترجم تسميته ، وتقويم ترجمته أو دراسة وتحليـل أشـعاره .. نظمـه ومضامينه ، فذلك يحتاج إلى بحث مستقل.

٤- بساتين الغفران

وهو الديوان الشعري العربي الذي نظمه شاعرنا الشيخ أحمد رضـا خـان البريلوي البركاتي القادري وقد كانت قصائده مبعثرة موزعة هنا وهناك فتفرغ لهـا الأستاذ الدكتور حازم محمد أحمد المحفوظ وجمعها ورتبها وحققها وقدم لهـا فقـدم بذلك عملاً علمياً كبيراً .. واسدى صنيعاً مشكوراً للغتين الاردية والعربية حيث قدم إلى ابناء العرب المسلمين نتاجاً شعرياً اسلامياً لعالم كبير من علماء شـبه القـارة الهندية وذلك باخراجه ((هذه القصائد والابيات – التي ضمها الديوان – من مجاهل الخمول إلى منصة النور ومن ظلمات الاهمال إلى ضوء النهار))[١].

والديوان يكشف بوضوح خبرة الامام أحمد رضا خان القوية باللغة العربية ورضائه فكرة وسيولة حكمه وسلاسته وحرصه الشديد وغيرته على الدين الإسلامي الحنيف[٢].

ومن خلال سطور مقدمة الديوان نطلع على مقدار الجهد الذي بذله جـامع الديوان ومحققه من متابعة وملاحقه للنصـوص مـن المخطوطـات والمبـلات والكتب[٣]. ومع كل ذلك فلا زالت بعـض النصـوص والاشـعار قيـد المجهـول والضياع.

---

(١) الديوان ص١٦.

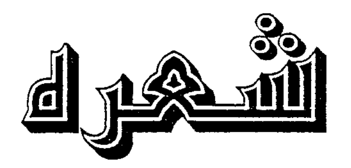
(٢) أنظر نفسه ٢٤.

(٣) أنظر نفسه ص٤٢-٤٣.

ومن الجدير بالذكر ان اختيار اسم الديوان (بساتين الغفران) كان من ابتكار المحقق واختياره وبدافع مراعاة اختيار الامام أحمد رضـا خـان لديوانـه الاردي (حدائق بخشش) وللديوان اسم تاريخي آخر يؤرخ سنة ١٩٩٦م وهو (إشعار الفهام بأشعار الإمام) وهو من اختيار الامام الشيخ عبد الدائم دائم استاذ الـدكتور حـازم المحقق ، وقد نشر الديوان عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م بمشـاركة أكاديميـة رضـا ، لاهور - مجمع بحوث أحمد رضا كراتشي - باكستان.

وسوف تقوم دراستنا لشعر هذا الامام العلامة على ديوانه بساتين الغفـران في الصفحات الآتية ان شاء الله.

الفصل الثاني



شعره

بعد أن تعرفنا في الفصل السابق على حياة الشيخ محمد أحمد رضا خان بريلوي القادري البركاتي تلك الحياة المملؤة بالعطاء والابداع والنتاج العلمي والأدبي الواسع .. والتي كانت تمثل نموذجاً قلّ نظيره عبر شبه القارة الهندية بل عبر قرون التراث الإسلامي برمتها. لما كانت تمتلكه من قدرات ومواهب نادرة مثلت بجهودها المتنوعة بحراً زاخراً فياضاً ، سواء في مجالات الدراسات والبحوث الإسلامية أو الأدبية أو العلمية .. ، من حيث الحجم والسعة .. والعمق ؛ لقد كانت اهتمامات الشيخ البريلوي متعددة منوعة ، ومن الصعوبة بمكان أن يكتب شخص واحد عن تلكم الاهتمامات وأن يقف عندها وقفة متأنية متعمقة كاشفة عما فيها من أسرار وابداعات ومن تجليات صوفية أو من ذكاء وفطنة في فتاويه وآرائه الفقهية والعقدية ، ومن براعة في المناظرة والمنطق وقدرة فائقة على الرد والجدل والاقناع في مجالات الحوار والتصدي لاعداء الإسلام وأصحاب الفرق والبدع التي ترتدي رداء الإسلام وهو براء منها.

وتأسيساً على ما سبق فاننا ، ومن باب الاسهام في مجال التعريف بهذه الشخصية الإسلامية المجردة ، والكشف عن أحد جوانبها المهمة ، وتقديمها إلى المسلم العربي قمنا بحصر دراستنا في مجال مهم من مجالاتها ، وهو شعر البريلوي المنظوم باللغة العربية فقط ، وذلك لاعتبارات عديدة منها ! ان الشعر هو فيض القريحة وجذوة الوجدان ونبض المشاعر .. وفيه تتلمس الصدق كما تكتشف الابداع والروعة ، لان الشعر ــ كما يقولون ، هو الشاعر ذاته ، فمن خلال هذا النتاج نستطيع تلمس جوانب الشاعر الأديب البريلوية الشخصية ونقف على أبعادها

الحقيقية وندرك كم كان مبدعاً ومتمكناً وقادراً بطواعية ومن غير تكلف أو تعثر على نظم الشعر والتعبير عن خلجاته بلغة غير لغته الأم .. والعناية باوزانه وقوافيه وتماسك مفرداته وجمله وهذا ما يجسم مقدرته اللغوية والفنية والادبية ، ومن تلكم الاعتبارات أن تتضح أمام القارئ عمق شخصيته الادبية والتاريخية والثقافية وذلك من خلال استخداماته في الشعر معاني وألفاظاً قرآنية أو حديثية شريفة أضافة إلى حكم وأمثال وقصص وأشعار تراثية عربية اسلامية .. وتوظيف ذلك في قصائده .. مما يدل على هضم جيد لمعطيات التراث .. وعلى اطلاع واسع للحركة الفكرية والعلمية والتاريخية واللغوية لامة الإسلام عبر عصورها.

ومن هذا المنظور يصدق ما كان يصرح به الشيخ الامام من انه عاشق للعربية وللعرب لان القرآن الكريم جاء بلغة العرب ولان لغة أهل الجنة العربية .. ولان محمداً ﷺ كان عربياً ، فترجم ذلك إلى واقع ملموس معبراً عن ولعه وحبه بل وشغفه بالعرب والعربية ، وهذه مشاعر لمسناها عند العديد من علماء المسلمين الكبار الذين كانوا ينتمون إلى غير العروبة نسباً ولكنهم كان يتعصبون للعرب وللعربية ، ولعلنا نذكر هنا قول العالم المسلم البيروني مؤلف كتاب الآثار الباقية وغيره **((لان أهجا بالعربية أحب عندي من أن أمدح في غيرها))**.

وكثير غير البيروني عباد من علماء المسلمين كانوا يفعلون فعله ويقفون موقفه فقد كان للقرآن الكريم أثر كبير وواضح في طبع ثقافات أولئك العلماء والادباء بطابع عربي جميل وبلغة سامية شريفة ، هي لغة القرآن ، قال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف:٣) وقال تعالى ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت آية ٣).

ان دراستنا لشعره ستحدد أبعادها في نتاجاته الشعرية العربية .. والتي ضمها ـ لحسن الحظ ـ ديوانه (بساتين الغفران) الذي جمعه ورتبه وضبطه وحققه

وقدم له السيد حازم محمد أحمد المحفوظ ، وراجعه الأستاذ محمد عبد الحكيم شرف القادري الأستاذ بالجامعة النظامية الرضوية ـ لاهور ـ باكستان ونشر ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

لقد بذل جامع الديوان جهداً كبيراً في البحث عن جميع قصائد الامام البريلوي ومنظوماته وعلى مدار أشهر طوال أمضاها في باكستان بين بحث ومتابعة وملاحقة حتى اكتمل هذا الجهد الجليل فقدم جامعه كما يقرر الأستاذ محمد عبد الحكيم شرف القادري " مجموعة الازهار إلى المحبين لحضرة الرسول ﷺ وأخرج هذه القصائد والابيات من مجاهل الخمول إلى منصة النور ، **((من ظلمات الاهمال إلى ضوء النهار))**[١]، ومن خلال المقدمة يتضح ان هذا الديوان لا يضم جميع قصائد الامام وانما هناك أشعار وقصائد أخرى بالعربية لم يطلع الجامع المحقق على كثير منها **((لعدم وجود المصادر التي تحتوي على تلك الاشعار))** [٢].

يضم ديوان بساتين الغفران مجموعة طيبة من القصائد والقطع والرباعيات.. وقصائد أخرى عربية ضمن منظومات أردية أو فارسية أو أشعار عربية تتخللها كلمات أو حروف أعجمية (الملمع) اضافة إلى مجموعة من التواريخ بحساب الجمل مما ستفصل القول فيها .

وعلى كل حال فقد كان جهد الجامع المحقق جهداً كبيراً وعملاً مضنياً ولكنني كنت أرى أن يكون تحقيق الديوان ضمن القواعد والأصول المتبعة في جامعات مصر.. والا يقحم نفسه خلال النص المحقق بتعليق أو وضع عناوين للقصائد فهذه الأمور ليست من عمل المحقق وانما عليه أن يقدم النص كما هو وبأقرب صورة إلى الاصل الذي وضعه الشاعر أو الكاتب.

---

(١) الديوان ص١٦.

(٢) نفسه ص٢٣ ، ص٤٤.

ونقطة أخرى كنت أفضل أن يعتمدها المحقق الجاد الأستاذ حازم وهي أن يجعل تقسيم الديوان : اما على أساس شكل النظم وقوامه الظاهري كأن يجعل تصنيفه على : قصائد وقطع ومربعات ومفردات ، أو على الاغراض والفنون التي عالجها من مديح أو رثاء أو هجاء(١).. الخ.

- أغراضه الشعرية

من يطالع الديوان يجد أغراضه وموضوعاته التي عالجها الشاعر الامام محدودة في مجالات معينة ، وهذا أمر متوقع لان حياة الامام وطريقة تفكيره ومجالات ثقافته وعلومه ، وحمله رسالة معينة في الحياة يسعى جاهداً من أجل تحقيقها وايفائها حقها من النضال والجهاد .. فهذه كلها تمثل الركائز الفكرية والعقدية التي تقوم عليها منطلقاته وآفاقه ، فهي لا تسمح له بتناول موضوع كالغزل مثلاً .. فكان يتحرج من أن يشغل فكره وخياله في هذه الأمور التي يراها تافهة وغير ذات اهتمام وهو يعتذر في احدى قصائده التي نظمها في مديح فضل الرسول العثماني وأورد في مقدمتها شيئاً من الغزل بأن ذلك كان أتباعاً لمذهب كعب بن زهير بن أبي سلمى الذي مدح الرسول ﷺ بقصيدة البردة وكانت تضم مقدمة رائعة ورقيقة وجميلة في الغزل وقد تقبلها منه النبي محمد ﷺ ولم يستنكرها وقصيدة كعب هي ذات المطلع :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم اثرها لم يفد مكبول

ومقدمة قصيدته المدحية السابقة تضمنت مجموعة أبيات غزلية جميلة ورقيقة .. ولكنه يشعرنا بالخجل والحياء من ايراد هذه الأقوال التي لن تخرج عن البطالة وعبث المراهقين .. فيستدرك بعد أكثر من عشرين بيتاً غزلياً مبرراً ومعتذراً قائلاً:

---

(١) أنظر نفسه ص٤٦.

دع عنك هذا لست أهل بطالةٍ

وانهض إلى ماكنت فيه تُضاني(١).

مالي وللغزل المُهيج فلا أكن ... غَزِلاً ولم أر مرتع الغــزلان

مالي وللاهوا إلى مهوى الهوى ... أفلي غَناء في غِناء غــوان

ما كان هذا ديدني لكنــه ... تشبيب * شعرٍ لا ددُ الشبان

اذ ما دد مني ولا أنا مــن ددٍ ... اذ جئت أمدحُ رُحلةً لأوانــي

فالغزل في نظره هو عمل أهل البطالة والعبث ، وهذا ليس من ديدنــه ولا من شيمته وانما هو شيمة أولئك اللاهين العابثين من غير حملة الرسالة والدعوة.

لذا فان ديوانه قد انحصر في موضــوعات هــي : المــديح ، والفخــر ، والاخوانيات، والهجاء والرثاء.

المديح

تتسع رقعة المديح في الديوان حتى يكاد يكون جلّ شعره في هذا الغرض .. والمديح عنده نوعان أحدهما في مديح النبي محمد ﷺ. وثانيهما في مــديح بعــض الشخصيات من العلماء الافاضل ومن الصالحين الذين أعجب بهم حضــرة الامــام البريلوي.

---

(١) الديوان ص٧٤.

* تشبيب : الغزل أو أرق الغزل ولكنه يريد انه تمهيد للشعر.

الرحلة : هو العالم الذي تشد اليه الرحال للأخذ منه وللاستفادة من علمه.

أ- مديح النبي المصطفى ﷺ

ان المتابع لحياة الشيخ أحمد رضا خان البريلوي والعارف ببنائه الفكري وعقيدته السليمة وايمانه المتين وسعة قراءاته لتراث الإسلام والعقيدة ، وما عرف عنه من عشق وهوى للحبيب المصطفى ﷺ ومن هيام وتعلق شفاف بشخصه الكريم يتوقع ان يجد فيضاً غزيراً من قصائد المديح النبوي ، خاصة وان قريحته الشعرية معطاءةً فياضة ، وانه لذو نفس شعري طويل اتضح جلياً فيما قاله من قصائد في مدح فضل الرسول البدايوني ولا يمكن أن نسلم القول بان نتاجه في مديح الرسول ﷺ مجموعة أبيات ترد ضمن قصائد مديح شخصيات من أحبائه ومعاصريه أو أن يرد البيت أو البيتان ضمن قصائد أردية أو فارسية .. وفي هذا المجال نظن بل نعتقد أن قصائد المديح النبوي للامام البريلوي هي أكثر مما وصلنا .. وأن بعضها مفقود مع ما فقد من نتاجه الغزير في المجالات العلمية الأخرى .. ولعل الايام القابلة ستكشف لنا الكثير مما يحقق توقعنا ويصدق ظننا . وليس هذا الأمر بمستغربٍ. أليس أن بعض المترجمين لشاعرنا من تلاميذه وأحبابه والمعجبين قد ذكروا أن له أكثر من ألف كتاب ولكن الذي بين أيدينا من كتبه المطبوعة والمخطوطة المعروفة لا تزيد عن ٦٠٠ كتاب .

ان المديح هو فن شعري معروف في كثير من الآداب العالمية ، ويقوم هذا اللون الشعري على ذكر فضائل الشخص الممدوح ومحاسنه وأفعاله وخصاله ولكل امة قيمها وخصائصها وصفاتها التي تعتز بها وتثنى عليها ، وضمن هذه الاجواء تدور قصائد المديح.. فكان المدح عند العرب والمسلمين يهتم بمثل وقيم معينة أولاها الإسلام اهتمامه وتركيزه .. مثل الايمان والصدق والقناعة والكرم والتضحية وغيرها ... وهذه الخصائص حينما يوصف بها الشخص الحي تعد مدحاً أما اذا ذكرت في وصف شخص متوفى فانها تكون حينذاك رثاءً الا في حالة النبي ﷺ.

فانها تكون مديحاً وليس رثاءً لان فكر النبي محمد ﷺ ورسالته دائمتان خالدتان لا يموتان حتى وان مات جسده ولا نريد ان تستعرض بدايات هذا الفن عند المسلمين وتطوراته عبد العصور لان ذلك موضوع طويل وفيه دراسات عديدة ، ولكننا وبايجاز نقول ان المدح النبوي ظهر مع انبثاق فجر الرسالة .. ولعل مقطوعات أبي طالب في مدح النبي محمد ﷺ قبل الهجرة كانت بواكير المديح ثم تطورت على عهد الرسول ﷺ على يد حسان بن ثابت وكعب بن زهير بن أبي سلمى .. وعبدالله بن رواحة وغيرهم.. وقد أخذ المديح النبوي والشعر الديني مناحي عديدة فيما بعد.. ولكنه ازداد رهافة وجمالية على أيدي بعض الشعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي والبوصيري وغيرهم ، ثم ظهرت بدعة جديدة في القرن (السابع) الهجري وهي بدعة حسنة مستحبة ونقصد بها الاحتفال بالمولد النبوي الذي ظهرت أول الأمر في مدينة أربيل بالعراق وانتقلت بعد ذلك إلى المغرب العربي والأندلس ومنهم إلى مناطق اسلامية أخرى ، كانت هذه الاحتفالات عبارة عن قصائد في مدح المصطفى ﷺ والتغني بفضائله وأمجاده وكرمه ونورانيته .. إلى غير ذلك من سمات وخصائص نبوية.

وعند العودة إلى شعر المديح النبوي الذي خلفه الامام البريلوي القادري البركاتي في اللغة العربية المتوفر لدينا ، نجده نزراً قليلاً وكان ضمن قصائد في مديح آخرين أو جاءت تخميساً أو تضميناً لشعر غيره أو مع قصائد باللغتين الأردية والفارسية ، ولا نريد ان نكرر توقعاتنا بفقدان بعض قصائده .. وقبل أن نتفرغ لدراسة تلكم المدائح وتحليلها لابد أن نتعرف على مفهوم الامام البريلوي للمديح النبوي وفلسفته ورأيه في هذا اللون الشعري ، فقد صرح هو نفسه بان هذا اللون من الشعر هو من أصعب أنواع الاغراض الشعرية وأعسرها وأكثرها خطورة على الشاعر .. فقد تزل قدمه فينحرف عن عقيدته ودينه فهو كالمشي على حدّ السيف أو

على حبل فوق هوة سحيقة .. يقول ((**مدح النبي ﷺ كالمشي على حدّ السيف لو بالغت زاحمت الألوهية ولو قصرت ارتكبت النقيصة**))(١)، فهذا أمر يتطلب من المادح المؤمن والعاشق المحب للنبي ﷺ ان يحسن التوفيق بين المحبة والشريعة ((لأن مراعاة الشريعة المجردة عن مشاعر الحب لا تبقى الشعر شعراً ، كما ان مراعاة المحبة فقط قد تسبب انحرافاً عن الشريعة وانزلاقاً))(٢).

ويبدو من خلال دراسة مديحه النبوي انه تمكن من أن يمسك العصا من وسطها.. وذلك بالاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم من سمات وفضائل وخصائصِ للنبي المصطفى ﷺ وقد نبه إلى ذلك شاعرنا نفسه بقوله ((**لقد تعلمت المديح النبوي من القرآن الكريم**))(٣).

وهذا تخريج جيد وتخلص من المعادلة السابقة .. لان المبالغة في مثل هذه الأمور قد تجر إلى شطط كبير يربأ المسلم نفسه عنه.

جاءت نصوص مديحه النبوي ممثلة في تسعة وثلاثين بيتاً موزعة على الشكل الآتي : خمسة أبيات من ٦٧ إلى ٧٢ من قصيدة دالية تعداد أبياتها اثنان وسبعون بيتاً ومطلعها :

الحمدُ للمتوحدِ بجلاله المتفرد

وستة أبيات ضمن قصيدته النونية التي تعداد أبياتها مائتان وثلاثة وأربعون بيتاً ومطلعها :

رنّ الحمام على شجون البان ياما أمبلم ذكرَ بيض البان

---

(١) أنظر ديوانه ص (١٠).

(٢) أنظر : الشيخ أحمد رضا خان ص٢٢٤ نقلاً عن كتاب : الامام أحمد رضا خان الحنفي وشخصيته الموسوعية للأستاذ كوثر النيازي ص٢٣ ، ٢٤.

(٣) أنظر ديوانه ص (١٠).

وفي قصيدته الدالية الثالثة والمؤلفة من مائة وأربعة وسبعين بيتاً نجد اثنى عشر بيتاً شعرياً في المدح ومطلع القصيدة :

هي الدنيا تُبيد ولا تفيدُ　　　فأفٍ لمن يريد ومن يَرود

ويكتمل العدد المدحي الذي أشرنا اليه بما جاء من رباعيات وأبيات متفرقة أخرى.

ويبدو مما سبق ان الشاعر لم يفرد مدحية في قصيدة واحدة مستقلة مثلما فعل في ديوانه الاوردي وان ما قاله في لغة الإسلام في مدح الرسول ﷺ أقل بكثير مما نظمه في الاوردية ولعل سبب ذلك انه كان يفضل بناء مدائحه النبوية بلغة القوم التي هي الاردية لاجل أن يفهمها عموم الناس وتتيح له ايصال أفكاره ومقاصده اليهم بيسر وسهولة[1].

تمتاز مدحياته النبوية العربية بلغة سلسة يسيرة وتتسم بمسحة عاطفية رقيقة فيها شذى الايمان ونعومة الهيام وليونة العبد المتذلل والمتوسل لسيده وحبيبه.. يقول في نونيته التي مدح فيها فضيلة الامام الشيخ فضل الرسول العثماني القادري الحنفي البدايونى بعد ابيات طويلة تزيد على مائتي بيت :

وصلاة ربي دائماً أبداً على　　　خير البرية سيّد الأكوان[2].

والآل والأصحاب والأحباب والـ　　　نواب والأصهار والأختان

صلى المجيد على الرسول وفضله　　　ومُحبه ومطيعه بحنان

صلى عليك الله ملك الورى　　　ما غرّد القُمري في الأفنان

صلى عليك الله يافرد العلى　　　ما أطرب الورقاءُ بالالحان

صلى عليك الله يامولاي ما　　　رنّ الحمامُ على شجون البان

---

(1) أنظر : الشيخ أحمد رضا خان ص٢٤٣.

(2) الديوان ص٨٨.

وجاءت هذه الابيات خاتمة للقصيدة .. وختامها مسك ـ كما يقال ـ وقد أضفى الشاعر على أبياته جمالية خاصة ولونها بالوان براقة زاهية تستمد روعتها وجماليتها من الطبيعة الغناء بأفنانها وأغصانها واشجارها مستكملة روعتها بالحان طيورها وتغريد قمريها وتطريب ورقائها .... وتضمنت القصيدة منزلة الرسول محمد ﷺ ومكانته الرفيعة بين البشر وتفرده بالعلى والمجد وسموه في أعالي الذرى... وكل تلك الصفات والسمات التي نعت بها الشاعر سيدنا محمد ﷺ مستمدة من القرآن الكريم – وهذا تطبيق عملي لما وصف به الشاعر طريقته ومنهجه في المدحَ النبوي – فاذا كان النبي ﷺ خير البرية وسيد الاكوان فهو كذلك ، فقد جاء عن المصطفى ﷺ قوله ***[انا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر]***[1] كما ان النبي ﷺ بإخلاقه ومثله وقيمه التي عرفت عنه كان مثالاً لا مثيل له.. فهو النموذج الاعلى الذي يحتذى ويكفيه ان الله تعالى قال عنه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي انك فوق ذروة الخلق والمثالية والعظمة لايطولها بشر ولا يصل اليها انسان مهما سما وعلا ..

وتكرار لفظة ((صلاة)) في الأبيات السابقة تعبير عما في ذات الشاعر من وله وحب لذات الرسول المصطفى ﷺ تكرار لذيذ وترديد مريح يبعث الرضى والاطمئنان والهدوء في النفس المؤمنة .. فيها تشوق وعشق للحبيب .. وهو أمر معروف فالعاشقون يحبون دائماً ترديد أسماء أحبائهم أو سماع أخبارهم وقصصهم

([1]) سنن الترمذي للامام عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ط مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٨٥هـ(ح٨ ص٥٨٧.

وكل ما يتعلق بهم. حتى وان كان في ذلك لوم أو لوعة أو حرقة : يقول أحدهم وهو الصوفي ابن الفارض :

أدر ذكر من أهوى ولو بملام ... فان أحاديث الحبيب مدامي[١]

فقد أكد شاعرنا نعوت الرسول محمد ﷺ : خير البرية ، سيد الاكوان ، رسول الله ، ملك الورى ، فرد العلى ، مولاي .... وهذه كلها صفات للنبي ﷺ وهي كلها تشير إلى ذاته وتعبر عنها .. وفي ترديدها اطفاء لحرقة الجوى المولعة في ذات الشاعر وفي أعماق وجدانه وخلاياه.

وفي عصره حيث استبد الأجنبي بالبلاد وأشاع فيها الفساد والظلم والعدوان، فطوقتهم الاحداث والمحن وطغت عليهم ظروف سياسية عسيرة عانت منها شبه القارة الهندية الويلات ، فخيم على الجميع ظلام الاستعمار وتحكم الأجنبي بمقاليد السلطة ، وما عاد للمسلمين من فعل أو دور إيجابي في بلدانهم .. ومع كل تلك الظروف لم أجد شعراً يصف هذه الحال أو يعبر عن تلك المعاناة .. وكان للامام الشاعر مواقفٌ سياسية معينة.. تقارع الاستعمار وتحارب أعوانه من أبناء البلاد وخاصة تلك الجمعيات الإسلامية التي أبدت الولاء والطاعة لتوجهات الاستعماريين[٢]، ولكن الإمام في الوقت نفسه استخدم ملكته الشعرية في مقارعة المنحرفين والمنافقين والخارجين عن السنة النبوية وعن الطريقة السليمة في الإسلام وهذا نجده في ديوانه حيث تعرض لهجاء تلكم الجمعيات الإسلامية كجمعية (ندوة العلماء) ومثل القاديانية والبهائية وغيرها.

---

(١) ديوان ابن الفارض : ١٦٢ ، دار صادر ـ بيروت ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م.

(٢) أنظر : الشيخ أحمد رضا خان ... ص٦٩ وما بعدها.

فالهجاء العقائدي والمذهبي أو الفكري يأخذ أبعاداً أخرى هي في حقيقتها هجاء سياسي لان من أهداف تلك الجمعيات والمنظمات المشاركة في الحياة العامة والحياة السياسية سلباً أو إيجاباً.

وعند مراجعة النصوص ذات المحتوى الهجائي الذي ينخرط في هذا المجال نلمس الاحساس بالالم أن يتعاون أبناء البلاد مع الاجنبي لضرب اخوانهم وأبنائهم .. وانه حينما يبلغ الظلم مداه والسيل زباه يتوجه الشاعر المؤمن إلى حبيبه المصطفى ﷺ لائذاً به متشفعاً متشبثاً .. يتوسل اليه أن يخفف عنه وعن قومه هذا البلاء ويزيل هذه الغمة .. ومثل هذا نلمسه واضحاً في قصيدته الدالية التي تبدأ بمطلعها :

هي الدنيا تُبيدُ ولا تفيدُ

فأفٍ لمن يُريد ومن يرود[1].

وهي أبيات مليئة بالتوجيهات الروحانية والتوسلات الايمانية الصوفية ، وهذه القصيدة تعد من أجمل قصائده ومن أكثرها تعبيراً وصدقاً عن واقع البلاد آنذاك ، وقد أشار المحقق إلى ان سبب نظمها وانشادها هو الرد على جمعية (ندوة العلماء) وبيان عقائدهم التي أسست عليها هذه الجمعية المخالفة لأهل السنة والجماعة[2]، فالقصيدة اذن هي مقارعة لافكار وتوجهات غير اسلامية وغير سليمة ولكنها ترتدي – مع الاسف – زي الإسلام وتتبرقع به ..فأراد شاعرنا الإمام كشف زيف هؤلاء وتعرية أفكارهم وعقائدهم المنحرفة ، ولكنه بعد ذلك غرق بالالم والانين من ظروف قاهرة ألمت به وقيدت أمته وكبلت حريتها ، فلما لم يجد بصيصاً من أمل في ازاحة هذا الكابوس توجه إلى ملاذه الامين وسنده القوي وركنه الشديد الذي لا

---

(١) الديوان ص١١٦.

(٢) نفسه ص١١٤.

يهد ولا يهيد توجه إلى النبي المصطفى محمد ﷺ مستجيراً يخاطبه بمناجاة وتواضع وخشوع يقول :

أسلمُ عُذ بوجه الله منهم	فان معاذه الركن الشديد[1]
ولذ برسوله فلياذه الحق	وعاهَدَهُ من الله العهود
جوار لا يُضام ولا يُرام	وركن لا يُهد ولا يهيد
على المولى من الاعلى صلاة	تفيض فتستفيض بها العبيد

....

صلاة لا تحدُّ ولا تُعدّ	ولا تَفنى وإن فنيت أبودُ[2].

....

رسول الله أنت لنا الرجاء	وفضلك واسع وجَداك جودُ
حبيب الله من تَقْر به حِفظاً	فكلّ كريهة عنه بعيد

....

وليِّيْ ثمْ أنت بنا لأولى	منَ انفسنا وربّ بذا شهيدُ
غليمك الوحيدُ رجا رضاكا	إذ أنْت العدلُ والقاضي الوحيدُ

فالنبي محمد ﷺ هو السّور الذي يصدّ عنه كيد الاعادي والجوار الذي لا يضام ولا يرام ، وهو الركن الحصين والعلم الشامخ الذي لا تنال منه ظروف ولا تهده الايام... وهو حافظه من كل كريهة وكل شرٍّ فليهنأ مستجيره ولينم قرير العين فلا خوف عليه ولا كريهة ولا جور أو ظلم يلحق به أو ينال منه أو يقرب من

---

(1) نفسه ١٢٥.

(2) أبود : جمع أبد وهو الزمان الطويل.

عرينه " فكل كريهة عنه بعيد " وقد كرر هذا المعنى في بيت شعري آخر يقول شاعرنا :

رسول الله أنت المستجار فلا أخشى الا عادي كيف جاروا[١].

فالمسلمون كلهم فداء للنبي محمد ﷺ إنه أغلى من روح أي مسلم .. فهو ولينا وناصرنا يقول الله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ (الأحزاب: من الآية٦) ويتضرع الشاعر بعد ذلك إلى النبي طالباً منه العدل والانصاف والقضاء فيما حلّ بالمسلمين من ضيم ومن قهر ومن دعوات زائفة منحرفة .. فيعبر عن تواضعه وتذلله بتصغير لفظة (غلام) زيادة في التواضع والتذلل وهي اشارة إلى لقبه (عبد المصطفى) [٢].

ويحتوي الديوان على مجموعة من مقطوعات قصيرة في مدح الرسول محمد ﷺ ، منها مقطوعته التي جاءت معارضة لابيات الشاعر أمية ابن أبي الصلت في ابن جذعان .. وقد ضمن في مقدمتها بيتاً من أبيات أمية يقول :

أأذكر حاجتي ام قد كفاني حياؤك ان شيمتك الحياء[٣].

......

رسول الله فضلك ليس يحصى وليس لجودك السامي انتهاء

فان أكرمتنا دنيا وأخرى فليس البحر ينقصه الدلاء

---

(١) الديوان ص١٣٧ ، ص١٦٢.

(٢) ينظر الديوان ص / د ، ص/١٣٨.

(٣) الديوان ص١٤٨ .. وتراجع قصيدة أمية ابن أبي الصلت في حماسة أبي تمام ــ باب الاضياف والمدائح ص٥٩٢ حماسية (٨١٩) ، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد المنعم أحمد صالح منشورات وزارة الثقافة والاعلام ــ بغداد ١٩٨٠ ، وأمية شاعر مخضرم أدرك الإسلام ولم يسلم ، ديوان الحماسة : لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفى ٢٣١هـ.

فالابيات تعيش أجواء الثناء والحب والمديح كما هي أجواء أبن أبي الصلت وان اختلف الممدوحان ، وشتان ما بينهما فهذه مديح في أسمى رجل وأعظم انسان وأكرمهم .. انه سيد البشر وملك البرية محمد رسول الله ﷺ أما الثانية فقد كانت في مديح عمرو بن عبيد الله بن معمر التميمي .. فاذا كان أمية يهتم بصفات دنيوية مادية كالكرم والعطاء والجود فان شاعرنا أضاف إلى تلكم المكارم والفضائل المادية صفات وفضائل معنوية وأخروية لا يحدها حد ولا تقف عند سدّ.

ويكرر شاعرنا في مدائحه النبوية أفضل الصفات وأجمل الخصائص والسمات ـ التي كان العرب والمسلمون يعتزون بها ويتفاخرون ـ لنسمعه يقول في قطعة أخرى:

الله يعطي والحبيب القاسمُ　　　صلى عليه القادة الأكارمُ[1].

ما نال خيراً من سواه نائلُ　　　كلا ولا يرجى لغيرٍ نائلُ

منه الرجا منه العطا منه المدد　　　في الدين والدنيا والأخرى للابد

وهذه كلها صفات تنحصر في مفهوم واحد ومعنى واحد انه العطاء والنوال ويبدو ان شاعرنا قد استمد معنى البيت الأول من الحديث النبوي الذي يقول فيه ﷺ *[إنما أنا قاسم والله يعطي]*[2].

ومن الصفات والفضائل التي ركّز عليها الشاعر وكان يتلذذ بترديدها والتغني بها هي المنعة والقوة والحصن الحصين الذي يأمن صاحبه ، فقد لاحظنا

---

(1) الديوان ص١٥٤.

(2) البخاري /٥. مكتبة النهضة الحديثة ١٣٧٧هـ ، ح١ ص٢١ وانظر الامام رضا خان ص٢٣٢.

في داليته ــ السابقة ــ الاشارة إلى النبي ﷺ وانه ركنه الحصين وسوره المتين وسنده الذي لا يلين .. ويتكرر هذا المعنى بقوله :

رسول الله أنت المستجار　　فلا أخشى الأعادي كيف جاروا[١].

بفضلك **أرتجى أن عن قريبٍ　　تُمزق كيدهم والقوم باروا**

ومعنى البيت الأول منهما سبق ان سمعناه من الشاعر في داليته حيث يقول :

حبيب الله من تَقْرَبْه حِفظاً

فكل كريهة عنه بعيد[٢].

ويشير في البيت الثاني إلى الدعاء على الفرق المرتدة والمنحرفة التي كانت شائعة في الوسط الإسلامي بالهند من أمثال القاديانية والبهائية وغيرهما .. ويسأل النبي ﷺ أن يمزق كيد أولئك ويبيد فعلهم ويشتت شملهم.

وله في معنى الاستجارة وطلب العون والاسعاف والاستناد إلى ركن النبي ﷺ وحصنه الحصين يقول :

رسول الله أنت بُعثت فينا　　كريماً رحمةً حصناً حصيناً[٣].

تخوفني العدى كيداً متيناً　　أجرني يا أمان الخائفينا

نعم فالنبي محمد ﷺ بعد الله تعالى هو الركن الحصين والجبل الشامخ والمرفأ الامين للمسلمين .. فعند بابه يجد الناس الاطمئنان وهدوء النفس وراحة البال.. وعند مقامه يحط الامان وتفوح نفحت الايمان فتسري في النفوس وتتلذذ الاعصاب والخلايا.. ويستريح الوجدان بفعل الايمان والروحانية العالية الشفافة. ولا

---

(١) الديوان ص١٦٢.

(٢) الديوان ص١٢٥.

(٣) نفسه ص١٦٢.

يجد مثل هذه المشاعر وهذه الانفعالات سوى من تسمو نفسه وتعلو ذاته في صوفية عالية وفناء وجداني لا يصل اليه الا أولئك الذين جاهدوا واجتهدوا وروّضوا النفس وطوّعوها وحجموا طموحها وتطلعاتها المادية والدنيوية...

والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا ترد إلى قليل تقنع

وهكذا نجد ان شاعرنا الإمام البريلوي كان يعلو بذاته ويسمو في شفافية نادرة وفي هيام واندماج لا يناله الا قلة من الناس..

ووجدنا له أبياتاً متفردات متفرقات ضمن قصائد نظمها بالاوردية أو بالفارسية وأحياناً أشعاراً من أبيات بالعربية وتكملتها باحدى اللغتين الاعجميتين : فمما قاله في مدح الرسول ﷺ في منظومة بالاردية وقد نقلها جامع الديوان من ديوان شاعرنا الاردي " حدائق بخشش ج٣ ، ص ٥٧ " :

خالق كلّ الورى ربك **لا غيره**

نورُك كلُ الورى غيرك **لم ليس لن**[١]

وفي هذا البيت نزعة صوفية عالية ولا نقول مغالية ، وفكرة كون النبي محمد ﷺ نور أزلي خلق منذ خلق الكون تعني عند المتصوفة أن ((**النور المحمدي هو الوجود الأول أبدعه الله تعالى أو الفيض الأول الذي فاض من ذاته.... محمد النور أو الحقيقة أو النبي سبق وجوده كل الموجودات وتقدمت حقيقته على كل الأنبياء وأفاض من نور باطنه عليهم وبذلك ظهرت لهم المعجزات**))[٢] هذه الفكرة تشيع في أوساط الصوفية وتجد قناعة تامة لديهم .. واذا كنا نؤمن بان محمد ﷺ هو نور من نور الله تعالى فاننا لا نحب أن نبالغ بذلك ونذهب بعيداً فندعي مثلما جهر بذلك بعضهم بان النبي محمد ﷺ هو نور العرش بل هو نور القلم واللوح والنهار

---

(١) نفسه .

(٢) أنظر ديوانه ص٢٢٤.

والعقل والمعرفة والشمس والقمر ونور البصر[١] ، وفي اعتقادنا ان تلك المبالغة بدوافع فرط الحب والوله.. وقد قيل ومن الحب ما قتل .. فالنبي محمد ﷺ على قدسيته وعلى معجزاته وكراماته ومنزلته العليا عند الله وبين البشر يظل في جانب آخر انساناً مثل الآخرين يتألم ويحزن ويفرح ويأكل ويشرب إلى غير ذلك من خصائص وسمات بشرية انسانية ، وفي رأينا ان الشاعر البريلوي لم يكن يقصد لك وانما أراد أن يؤكد أن نور النبي ﷺ خاص به فلم يسبق لاحد قبله ولا بعده ينال هذه المكانة ويحظى بهذه المكرمة الالهية فهو لايحب المبالغة ولا يدعو اليها وانما هو متمسك بمنهجه في المدح النبوي الذي تعلمه ـ كما قال ـ من القرآن الكريم. وفي شطره الثاني من البيت السابق أحسن الشاعر ايجازاً في قوله (لم ليس لن) أي لم يتحقق لغير النبي ﷺ نور مثل نوره وليس ممكناً تحقيق مثله لغيره ولن يتحقق ذلك في المسقبل (فلم) تفيد النفي وتعطي معنى الفعل الماضي .. (ولن) تفيد تأبيد النفي واستمراريته إلى نهاية النهايات (وليس) فعل جامد ماض يفيد النفي أيضاً ، فالشاعر هنا أراد أن يقطع النفي وأن يؤكده بكل الادوات الممكنة والقاطعة في هذا المعنى والتي لا يمكن أن يدخلها التردد أو التشكيك ... فكأنه أراد أن يقول ما عبر عنه الباحث ممتاز أحمد سديدي الأزهري في كتابه الشيخ أحمد رضا خان ، شاعراً عربياً ، ((**ان نور هدايته " أي النبي محمد ﷺ لا يضارعه نور أبداً ، ولم يسبق اليه ، ولن يأتي بعده نور آخر مثله .. وبذلك أشار إلى ختم النبوة حيث لا نبي بعد الحبيب المصطفى ﷺ**))[٢].

---

(١) نفسه ص٢٢٥.

(٢) أنظر كتاب الأزهري ص٢٤١.

وما دمنا في الحديث عن نبويات الشاعر الهندي البريلوي القادري بركاتي فلابد أن نتعرض لما جاء في ديوانه من أشعار دينية إسلامية لانها ذات علاقة وترابط مع نبوياته ومع توجهاته وثقافته ومع ما ينسجم مع سلوكه الشخصي وحسه الديني المرهف، فمن تلك الاشعار ما يندرج ضمن التوسلات والدعوات والركون إلى الركن الالهي الحصين .. وتكرر هنا أن دوافع مثل هذه الاشعار تكون غالباً بسبب ما يحيط بالشاعر من ظروف قهرية ومن ظلم واستبداد .. لا قدرة له ولا للمسلمين على ردّها أو مصارعتها بالسلاح والقوة ، وملجأ الانسان آنذاك إلى الله تعالى يطلب منه العون والنصر والاحتماء .. وأرى أن من دوافع شعر أديبنا المترجم له غير ماذكر هو ظهور حركات منحرفة خارجة عن الإسلام في فترته متعاونة مع الاستعمار ، فلم يجد غير القلم والقرطاس أسلوباً ووسيلة لمحاربتها والردّ عليها ، وتشجيع من يقف ضدها والثناء عليه ومدحه مثلما وجدنا ذلك في البيت ذات المطلع :

الحمد للمتوحد بجلاله المتفرّد[1].

التي وجهها مادحاً فيها الشيخ تاج الفحول السيف المسلول على أعداء الرسول ﷺ فضل الرسول العثماني القادري الحنفي البدايونى ، جاء في هذه القصيدة الطويلة قوله بعد البيت السابق :

وصلاة مولانا على خير الانام محمد
لاهُمّ[2] قد هجم العدى من كلّ شأوٍ أبعد
من خيلهم ورجالهم مع كلّ عادٍ معتدِ
هاوين ذلّة مُثبتٍ باغين ذِلة مهتد

([1]) الديوان ٥٨.

([2]) لاهُمّ : لغة في اللهم.

فهذه الابيات تشير بوضوح إلى وجود عدوٍ للمسلمين عنده العدة والعدد من الخيل والرجال .. أي لديه القوة والسيطرة وان هدفه هو تحريف وتزييف العقيدة المحمدية وخلق الشك في نفوس المسلمين بدينهم ومعتقدهم واذلالهم واخراجهم عن طريق الهدى السوي ... ولكن الشاعر يعود فيحتمي بربه القوي العزيز وبحصانة المسلمين المتينة التي تدفع عنهم كل تيارات الالحاد والكفر وتصد عنهم الخوف والارتجاف والزعزعة ، لان معهم الله تعالى ويده تأخذ بهم إلى حيث الامان : يقول:

لكنّ عبدك آمن   اذ مَن دعاك يؤيدِ
لا أخشى من بأسهم   يد ناصري أقوى يد
ياربّ يارباه يا   كنز الفقير الفاقد
بك ألتجي بك أدفعُ   في نحرّ كلّ مهدِّدِ
أنت القوي فقوتي   أنت القدير فأيدِ
فالى العظيم توسلي   بكتابه وبأحمد
وبمن أتى بكلامه   وبمن هدى وبمن هدى

وهكذا يستمر الشاعر بالتوسل والترجي بكل ماهو مقدس وما هو معظم من أولياء الله وبيته العتيق إلى غير ذلك. ونرى الشاعر يخاطب الممدح طالباً منه أن يتشفع له عند النبي محمد ﷺ بل ويحلفه بالله تعالى ألا ينساه في هذا المقام لنسمعه قائلاً :

فإذنْ تشفّع للرضا[1]   عند النبي الأمجد
بالله لا تنساه اذ   هو قادري أحمد

([1]) الرضا يعني نفسه لان لقبه الشعري (رضا).

يانفس طاب أوانك   فتشكري وتجلدي

أنت المنى ودنا الهنا   فلوجه ربك فاسجدي

وكرر مثل هذا الموقف المتصدي لاعداء العقيدة والإسلام والذين كانوا يتظاهرون بانهم مسلمون ولكن الحقيقة غير ذلك في قصيدة أخرى يقول يعد أبيات تجاوزت الثمانين[1] :

يتلجلجون بقول أشهدُ أن كذا

والقلب بين الكفر والكفران

ظلوا وباتوا يذكرون كبيرهم   مطربين لعّابين بالإيمان

واذا ذكرت نبينا فاذا هم   جعلوا أصابعهم وكالأذان

ثم يدعو نفسه لتجنب الجلوس مع أولئك المنافقين لان وجوده بينهم يحمله اثماً كبيراً وكأنه يأخذ معنى الآية الكريمة ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (سورة الأنعام آية ٩١).

قم يارضا لا تغش أهل غِشاوةِ

ذرهم وما هم فيه من خذلان

إشغل بنفسك أنت أجنى من جنى

كم من مَعايبِ هَنٍ ونعمِ فلان[2]

تُب ياأثيم فقد أظلّ زمانة

يُمحى بها جَمّ من العصيان

ثق بالرسول المستعان وفضله

وأتِ المزار الباهر السلطان

---

(١) الديوان ص٧٧.

(٢) معاب مصدر ميمي بمعنى العيب ، و (هَنٍ) يكنى به عن كل مستهجن ، الديوان ص٩٥.

ويخصص الشاعر في نهاية القصيدة النونية آنفة الذكر أكثر من ستين بيتاً في التوجه إلى الله تعالى ثم إلى رسوله مستغيثاً طالباً العفو والغفران والرحمة .. ومعترفاً بكثرة ذنوبه ومقترفاته وآثامه وفي القصيدة أبيات ذات منزع صوفي شفاف يقول في بعضها :

كيف الوصول وحالَ بحر بيننا وسفينتي متلاطمُ الطوفان[1]

أم كيف يرجو الوصل عبد باء في سجن الشجون بأسوء الأرسان

*****

أرفق بنفسك يامذكرَّ همه هو عالم الاسرار والاعلان

*****

أظلوم انّ العمر ظلّ زائل والموتَ مأتي وكل فان

فمتى تلوذ بجاهه وتقول يا اللهُ ياربا ياه يا حنانِ

العبدُ معترف بمقترفاته ويظن انك راحمُ الندمان

*****

وأجلها دين النبي المصطفى والاعتصام بحبل سبعٍ مثاني

*****

فبلطفك الحنان مالي ملجأ إلا حناؤك من شجٍ أنّان

مالي اليك وسيلة الا الرجا المصطفى المبعوثُ بالفرقان

فبعزك الأعلى وقدرتك التي لا تنتهي بزمانةٍ ومكان

أحسن إليّ بحُسن أحسنِ محسنٍ حَسَنٍ حَسينَ حاسنٍ حُسّان

([1]) الديوان ص٨٤.

ويلتفت بعد الدعاء لنفسه وطلب المغفرة والعفو والرحمة لذاته إلى الـدعاء لابيه وجده وأن يرحمهما الله تعالى وينور ضريحيهما ويبدلهما بدار وجار خيراً مما كان عليه حالهما في الدنيا :

وارحم أبي وأباه رحماً دائماً
واجعل قبورهما رياض جنان
آنسهما اللهم في جدثيهما
بالحور والغلمان والرضوان
أبدلهما داراً وجاراً خـيراً
من هؤلاء الدور والجيـران
حتى يقول الناظرون اليهما
بتعجب وتباشرٍ وتـهـان
عبدان مرحومان رب غافـر
نُزل كريم مَنزِل روحاني

وهكذا يستمر الشاعر في مثل هذه المناجاة والتوسلات الايمانية والـدعوات الرحمانية ثم يأتي بصلوات على النبي ﷺ ويختتم القصيدة التي استغرقت ٢٤٣ بيتاً بشطرٍ هو ذات الشطر الذي بدأ به قصيدته : **(رنّ الحمام على شجون البان)**.

وقد أحسن جامع الديوان ومحققه الأستاذ حازم محمد محفوظ حيث استقصى بالمتابعة والبحث الاشعار العربية والاشطار العربية التي وردت في ديوانه الاوردي "حدائق بخشش " أو جاءت ضمن قصائده الفارسية وبعضها في المدح النبوي خاصة أو الديني عامة : ونكتفي بنموذج واحد منها وهو بيتان جاء ((أول منظومة باللغـة

الفارسية نظمها فضيلة الامام الاكبر المجرد (يعني أحمد رضا خان) في مدح فضيلة الامام محمد عبد السلام القادري الجبل بوري)) [١] يقول في بيتيه العربيين :

لك الحمد يامن عفا وكفا صلاتك **دوماً على المصطفى**

وآلٍ وصحبٍ وأتباعهم **وغوث الورى ثم أشياعهم**

وهذا اللون الشعري الذي يشبه (الملمع) في العربية والذي كان يطلق في العصر العباسي وما بعده على الشعر العربي المطعم والمضمن أبياتاً أو أشطاراً بالفارسية . ويمكن لزيادة التعرف على هذه النماذج العودة إلى فهرست ديوان " بساتين الغفران " .

---

(١) الديوان ص٢٢٦.

ب- مديحه لغير النبي المصطفى ﷺ

لم يمدح شاعرنا الأديب العالم محمد أحمد رضا خان السياسيين ولا ذوي السلطة والنفوذ الدنيوي وانما كان مديحه لشخصيات لها تعاملها ومنزلتها في مدارج العلم الرباني ولها قيمتها الاجتماعية في أوساط الصوفية وأهل الصلاح والتقوى فقد كان شديداً وعنيفاً مع الكفار مهما كان لونهم أو عقيدتهم ، ولذا فقد كان صريحاً في موقفه تجاه التعاون مع الانكليز الذين كانوا يحتلون الهند آنذاك وكان يقول ((إن **الإسلام يطالب بعدم الموالاة للانكليز ولا يمنع من معاملتهم**))[1].. لان الإسلام دين سلام ومحبة وتآخي ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة الحجرات آية ١٣) وعليه فان رأي الإمام البريلوي يقوم على امكانية التعايش مع غير المسلمين وامكانية التعامل معهم على المثلية والندية . أما ان نتخذ من الكفار أولياء فذلك هو ــ في رأيه ــ الكفر بعينه متمثلاً بالآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة المائدة ، آية ٥١) ولا نريد أن ندخل في هذا التمهيد إلى معاركه السياسية الدينية مع غير المسلمين في الهند لان ذلك حديث طويل وقد استوفاه الأستاذ ممتاز أحمد سديدي الازهري بكتابه القيم عن الشيخ أحمد رضا خان ، ومن خلال نصوص ديوانه (بساتين الغفران) يتضح ان الشاعر قد مدح شخصيات عديدة يصل تعدادها إلى أكثر من ستين شخصية وهي كلها ترتبط

---

(١) أنظر : الشيخ أحمد رضا خان ص٧٦.

بالشاعر ، إما بالتلمذة أو الصحبة أو التوجه العقدي والمذهبي .. ومن تلكم الشخصيات فضل الرسول العثماني القادري الحنفي البدايوني ومدح والده وولده وكذلك مدح الشريف أبا الحسين أحمد النوري وإسماعيل بن خليل وأخيه وأبيه وكذلك محمد رضا علي خان النقشبندي ومحمد تقي علي خان القادري والشيخ معين الجشتي الأجميري[١]. وغيرهم كثير ، وتبرز أمامنا ثلاث قصائد مدحية طويلة الأولى منها ذات المطلع :

الحمد للمتوحد   بجلاله المتفرد[٢].

والثانية ذات المطلع :

هي الدنيا تُبيد ولا تفيد   فأفٍ لمن يريد ومن يرود[٣].

وقد نظمت هاتان القصيدتان في مدح المولوي فضل الرسول العثماني ونشرتا في كتيب بعنوان " قصيدتان رائعتان " بعناية فضيلة الشيخ محمد أحمد المصباحي بالهند سنة ١٩٨٩م ـــ ١٤٠٩هـ ونشرتا مؤخراً في بغداد بعناية الشيخ أبي سارية الهندي سنة ٢٠٠٢م ـــ ١٤٢٣هـ وتاريخ نظم القصيدتين كان في عام ١٣٠٠هـ وكان عدد أبياتهما ٣١٣ (ثلاثمائة وثلاثة عشر بيتاً) بعدد أصحاب بدر ﷺ وقد ذكر الشاعر انه نظمهما في ((مدح تاج الفحول السيف المسلول على أعداء الرسول ﷺ مولانا المولوي فضل الرسول العثماني القادري الحنفي البدايوني رحمة الله تعالى عليه))[٤].

---

(١) أنظر : نفسه ص٢٤٥.

(٢) الديوان ص٥٨.

(٣) الديوان ص١١٦.

(٤) أنظر : الديوان : ص٥٧.

أما القصيدة الثالثة من مطولاته فهي النونية ذات المطلع :

رنّ الحمام على شجون البان ياما أميلم ذكر بيض البان[١].

وقد نظمت هذه القصيدة في مدح فضيلة الامام الشيخ فضل الرسول العثماني القادري الحنفي البدايوني[٢].

فالقصائد الطوال الثلاث كلها في مدح شخصية فضل الرسول العثماني.. ولكن السؤال أكانت تلك القصائد محددة في الثناء والتبجيل لهذه الشخصية أم كانت تضم مدائح لاشخاص آخرين .. غيره؟

إنّ بدراسة هذه القصائد وتحليلها نكتشف أن بعضها لم يقف عند حدود غرض مدح تلكم الشخصية الموجه اليها النص ، وانما تطرقت إلى مدح النبي المصطفى محمد ﷺ ومدح الشيخ عبد القادر الكيلاني ومديح لوالد العثماني هذا وجده وتتضمن أيضاً الدعوات والتوسلات والترجي والاستغاثة بالله تعالى أو بالنبي محمد ﷺ وذلك من أجل العون والأسناد أمام هجمات عدوانية دينية أو سياسية كانت تعيشها الأمة الهندية آنذاك ، وإذا كنا من حيث الشكل والبناء الهيكلي العام لا نجد وحدة موضوعية أو عضوية بين تلك الموضوعات التي احتوت عليها القصائد والذي يجعلها أقرب إلى تجميع موضوعات عديدة في قصيدة موحدة الوزن والقافية فقط. لكننا حينما نتفاعل مع تلكم القصائد الثلاث ونعيش جوها العام والخاص ونتعرف على مقدار المشاعر الدينية والعاطفية التي يجيش بها وجدان الشاعر وتمتلئ بها روحه ندرك أن أبيات كل قصيدة من تلك القصائد تتلاحم مع بعضها وتتداخل وتتعانق في عشق لا يمكن الفصل بين موضوع وآخر ، فهي موحدة في

---

(١) الديوان ص٧٢.

(٢) نفسه ص١٠٤.

جوها الروحي وعبقها الإيماني الذي يضفي عليها هالة شفافة من التوحد والهيام يعبر بصدق عن صوفية الشاعر وهيامه وسمو عواطفه ومشاعره.

فالقصيدة الدالية الأولى تبتدئ بالتحميد والصلاة على خير الأنام ثم الاشارة إلى أعداء الإسلام من المارقين(١):

لاهم قد هجم العدى — من كل شأوٍ أبعد
في خيلهم ورجالهم — مع كل عادٍ معتد

لقد جاء الاعداء .. بعدتهم وعددهم .. ولكنه واثق من النصر مطمئن آمن لان من يركن إلى الله ورسوله لا خوف عليه فيد الله تعالى أقوى من أيديهم، ولا يخيب رجاء من دعاه واستعان به ، فانه يستمد قوته من قوة ايمانه بالله ورسوله الكريم ﷺ :

لاهُمّ فادفع شرّهم — وقني مكيدة كائد

وبعد هذه المقدمة التي تستغرق سبعة عشر بيتاً ينتقل الشاعر إلى ممدوحه فيخاطبه باسمه قائلاً :

فضل الرسول لنا ومن — عَبَدُ المجيد يُمجد
الله مولانا ولا — مولى لعاتٍ مفسد

فالبيت الأول من البيتين الأخيرين استغاثة بالممدوح وركون إلى حصنه القوي .. فأنت أيها الممدوح (فضل الرسول) عوننا وناصرنا .. وعزنا لما تناله من حظوة ومكانةٍ عند الله لان من يعبد الله المجيد العزيز لابد أن يمجد وأن يعتمد عليه ويركن اليه، فاننا جميعاً الشاعر والممدوح يتوحدان في عقيدتهما وفي ايمانهما فهما

---

(١) الديوان ص٥٨.

من عبيد الله وليس لهما الا الله ولي ونصير .. بينما الآخرون من المارقين والمفسدين ليس لهم الا الخزي والعار والهزيمة وليس لهم ولي الا الشيطان ، ويستمر في الأبيات اللاحقة بهجوم عنيف على أولئك العابثين المفسدين ثم يعود مرة أخرى إلى مخاطبة الممدوح فيقول :

فضل الرسول هو الذي … والاه كلّ مسدّدِ

أعظم به كم فاز من … فضلٍ ومجدٍ ماجد

أكرم به كم حاز من … فيضٍ وجودٍ حائدِ

فالممدوح "رحمه الله" كان موجهاً ومفكراً وقد حظى بتقدير واعجاب الكثير من المريدين (والاه كل مسدَّد) ، فافضاله ومكارمه وأمجاده كثيرة لا تحصى ، وهو كريم فياض معطاء ونوره يتوهج في الافاق ويبرق في العلياء كأنه الفرقدين .. وهذه فكرة صوفية .. وهي فكرة الاشراق .. والكشف التي لا يبلغهما إلا من نال حظاً كبيراً وبذل جهوداً شاقة ومعاناة طويلة ومكابرات يعرفها أولو الكرامات وأهل الخرقة .. ومن سلك درب الصوفية. لنسمعه يقول مخاطباً وواصفاً حال الممدوح :

أنظر بوارقه اذا … برقت بعليا فرقد

نعم الضياء وياله … من واقدٍ مُتوقّدٍ

بلغ المرام بنورها … من شاء الا المعتدي

فأنوار الممدوح مشرقة متوقدة تنير الدروب للناس أجمع الا أولئك الذين أبوا الانتفاع والاهتداء بذلك النور الرباني والهداية المحمدية .. فضلوا بعماهم وغوايتهم وشقائهم وبؤسهم فانت ــ أيها الممدوح ــ لم تبخل على أحد بالنصيحة والهداية ولم تحجب نورك وضياء فكرك عن الآخرين .. ذلك الجزاء الاوفى بما قدمته للمسلمين من إرشاد وفكر منير وعقيدة سليمة تبعد الناس عن النهج الردي ، وبذلت كل

طاقاتك من أجل هدايتهم مستخدماً كل الوسائل والطرق .. القوة القاهرة .. والحجج البليغة التي أفحمت عدوك ودحرته فلم يطق الردّ أو الجدل يقول في ذلك :

فالله يجزيك الجــزا   ياقاصماً لمعانـــدٍ

اذ كان هديك هاديــاً   يحمي عن النهج الردي

....

قطعت يداك وتينهم   بمحدّدٍ ومهنـــدِ

فسبحت بحر دمائهم   فيها تروح وتغتدي

....

حاججهَم فحجُجتَهــم   وحججت خير معَابــد

ثم بعد ذلك يتحدث في الأبيات اللاحقة عن زيارة الممدوح للأراضي المقدسة في الحجاز ويتوجه اليه ملمتساً وطالباً منه التشفع عند النبي محمد ﷺ وألا ينساه ..

فإذن تشفع للرضا   عند النبي الأمجد

بـالله لا تنساه اذ   هــو قادري أحمد

وهو هنا يصرح باسمه الشعري (الرضا) وهي صيغة جديدة قد لا نجدها الا نادراً في شعر المديح العربي.

وبعد هذا يورد الشاعر بيتاً يحدد في الشطر الأول فيه تاريخ وفاة الممـدوح وفي الشطر الثاني تاريخ نظم القصيدة .. وقد كان أسلوباً شائعاً عند شعراء العرب للفترة نفسها التي عاشها شاعرنا أي القرن التاسع عشر وبدايـة القـرن العشـرين الميلادي.

يقول في ذلك البيت :

فضلُ الرسول مؤيّد   يافَضَل عُرسٍ أماجد

١٢٨٩هـ   ١٣٠٠هـ

ويختتم قصيدته هذه بابيات فيها صلاة على النبي محمد ﷺ وأصحابه .. ويطالب ذاته بان تزيد من الصلاة وأن يديمها ثم يذكر اسمه مرة أخرى في آخر بيت مشيراً إلى تذلله وتواضعه وانه ليس أكثر من عبد صغير فقير أمام الممدوح أو ربما يعني أمام النبي محمد ﷺ .

وأرم صلاتك والسلا م على الحبيب الأجود
وأجعل بها أحمد رضا عبداً بحرز السّيد

ونسجل لهذه القصيدة بناءها الموحد وغرضها المفرد الذي خصصه الشاعر لمدح فضل الرسول العثماني ، واذا تعرض إلى الهجاء لأهل البدع والضلالة .. فهذا أمر يقتضيه الموضوع لان من فضائل الممدوح ومحاسنه أنه تصدى لاولئك بقلمه وفكره وقاومهم فأحسن المقاومة .. ولكن امراً آخر مهم يمكن أن نشير اليه وهو ان الممدوح كان متوفياً حينما نظت هذه القصيدة حسبما جاء في أحد أبياته التي ذكرناها سابقاً وفيما جاء بتاريخ الوفاة وتاريخ نظم القصيدة.. فلماذا لم يصف الشاعر هذه القصيدة والقصائد اللاحقات الآخريات التي كانت في مدح الشخصية نفسها بانها قصائد رثاء ؟؟ الذي نلمسه وندركه أن الشيخ الإمام أحمد رضا خان القادري البركاتي .. كان ينظر إلى بعض ممدوحيه من الصالحين ومن الأولياء وذوي الكرامات انهم أحياء بفكرهم وتراثهم العلمي الديني .. فيتعامل معهم معاملة الاحياء .. وهذه النظرة نفسها تفسر مدائحه للشيخ عبد القادر الكيلاني الذي كانت وفاته قبل قرون من عصر الإمام الشاعر البريلوي.

اما في قصيدته النونية الثانية من مطولاته فهي في مدح فضل الرسول العثماني أيضاً ، وهي أطول قصائده حيث تشتمل على ٢٤٣ بيتاً بدأها بصدر المطلع " **رنّ الحمام على شجون البان** "وختمها بالشطر نفسه.. وقد جرى فيها مجرى شعراء العرب القدماء .. من حيث الشكل والبناء .. فقد بدأت القصيدة

بمقدمة غزلية طويلة هي ليست من عادة هذا الشاعر الإمام الذي لم يقل الغزل ولم يعاني قرضه في عموم تراثه الشعري .. وكذلك احتواء القصيدة على أكثر من موضوع وأكثر من ممدوح .. وسنحاول ان نحللها ونتتبع مراحلها وبناءها .. ومتابعة ذلك الخيط السري الخفي الذي يشدّ أجزاء النص بعضه ببعض.

مهد في القصيدة النونية لغرضه الرئيس بمقدمة غزلية رقيقة وجميلة أمدها بعاطفة شفافة وصور رائعة وألفاظ جذابة ولاسيما حينما يستعمل التصغير في بعضها فيزيد من رقتها وعذوبتها لنسمعه في بعض أبيات التمهيد :

رنّ الحمام على شجون البان	**ياما أميلم ذكر بيض البان**[١].
تبكى دماً وتقول في اسجاعها	**الله** يضحك **سنّ من أبكاني**

....

هل ياهلال العيد عندك **خبرة**	**بشميسة في بدرها قمران**

....

بانت ومالانت فبانت لوعتي	**ياخيبتي في الصبر والسلوان**

....

ما مضمضت عيني بنومٍ مُذ مضت	وكذاك **كلّ مفارقِ الخُلانِ**

فكم هو جميل ورقيق استخدامه لالفاظ مصغرة ، مثل أميلح وشميسة !! كما انه أحسن في استخدام لفظة (مضمضتْ) للعين في حين انها تستخدم للفم حينما يتمضمض الانسان أي يلاعب الماء بفمه ويغسل أسنانه فكأن النوم هو الماء ولكنه لم يصل إلى عينيه ليغسلهما ويخفف من أرقهما وألمهما أي انه لم يعرف النوم أو الكرى .. وقد خلق في الشطر ذاته جناس ناقص بين اللفظة هذه ولفظة (قد مضت).. أما البيت ماقبل الاخير فلا يخفي مافيه من جناس متراكم ومتعدد في

---

(١) الديوان ص٧٢.

شطره الأول .. ويستمر الشاعر في بناء مقدمته تلك ، ولكننا نلمس في أحد أبياتها تأثره بقصيدة إسلامية قيلت في مدح الرسول ﷺ من شاعر جاهلي جاء تائباً ومعتذراً ومعلناً اسلامه ، هي قصيدة كعب بن زهير اللامية التي مدح فيها المصطفى ﷺ وأثنى عليه ثناء كبيراً استحق بذلك اعجاب الرسول محمد ﷺ بها فعفا عنه وأكرمه ببردته .. ومطلع هذه القصيدة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يُجز مكبول[1].

ونلحظ في مقدمة شاعرنا أكثر من صورة شعرية اقتبسها من قصيدة كعب وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من التأثر والاقتفاء والمحاكاة يقول :

لا تُنجز الميعاد لكن لم أكن   لأعيبها كلا وما هو شاني

فهذا المعنى مقتبس من قول كعب:

كانت مواعيد عرقوب[2] **لها مثلاً**

وما مواعيدها الا الاباطيل

ويقول شاعرنا

تمشي وتغشاها الصَّبا فكأنها   غصن سويّ مائد متهان

فصورة الحبيبة وكأنها تتهادى في مشيتها غصن مستقيم معتدل في طوله تداعبه الصبا والنسائم فيتمايل اعجاباً وتباهياً قريبة من صورة كعب حيث يقول :

هيفاءُ مقبلةً عجزاءُ مدبرةً   لا يشتكى قصر منها ولا طول

ثم يأتي شاعرنا بصور مستقاة من الطبيعة الزاهية ومن ألوانها المنوعة الجذابة ومما تحمله من جنيً وثمار عنب وعناب وسلوان ولوز وتفاح ورطب

---

(١) ديوان كعب بن زهير ص٦، نشر الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م.

(٢) عرقوب : هو عرقوب بن نصر رجل من العمالة نزل بالمدينة المنورة قبل أن ينزلها اليهود بعد عيسى بن مريم عليه السلام وكان يضرب به المثل لاخلاف الوعد . / انظر ديوان كعب ص٨.

ورمان[١] ويعود إلى وصف مفاتن حبيبته وجمالها فيغرق في سحر عينيها ويتعذب من جفائها وهجرها وتفيض عبراته بسببها : يقول :

سحرتني العينا بلحظة طرفها　　　من لي برقية ساحر فتان

ولك وما والك فوالك عبرتي　　　لم لا أهيم اذا الحبيب جفاني

ففي البيت الأول حذف نون لفظة (العينان) وهي مثنى (عين) للضرورة الشعرية فكان الاصح لغة أن يقول العينان .. وسحر الطرف هو القيد الجميل الذي يخلب لبّ الشعراء ويثير عذابهم ومن قبل وجدنا ذلك أيضاً في لامية كعب حينما يقول :

وما سعاد غدَاة البين إذ رحلوا　　　الا أغنٌّ غضيضُ الطرف مكحول

وبيت كعب وصف ظاهري لم يوضح لنا مدى تأثيره في عواطف الشاعر ومدى أسره لفؤاده .. بينما شاعرنا نقل الاحساس الذي تركه طرفها .. ومقدار السحر الذي سرى في قلبه ووجدانه من أثر تلك النظرة حتى انه لشدة ما أصابه كان يبحث عن ساحرٍ ليبطل مفعول سحر الصبيتين الجميلتين في قلبه ويكتب له رقية تقيه وتشفيه. وزاحم البيت الثاني من الشاهد بالجناس .. ورسم صورة لحاله الهائم المعذب لجفوة الحبيب .. فهو يبكي بعبرات ودموع ، وهذه الصورة هي جزء متمم لما بدء به الشاعر من صور حزينة باكية.

وبعد أربعة وعشرين بيتاً ينتبه الشاعر إلى حاله ويتذكر أن غايته من القصيد هي مدح أحد أساتذته الافاضل من الأولياء الصالحين .. فلا ينبغي له في هذه الحالة أن تأخذه العواطف وأن يسترسل في غزله .. لان ذلك اللون من التعبير والنظم ليس الا توافه الدنيا وليس الا عمل أناس عاطلين ليس لهم رسالة أو هدف .. انه عمل الشباب اللاهي العابث .. فليتفت فجأة ومن غير تمهيد أو حسن تخلص كما يقول النقاد .. مؤنباً ذاته ومعاتباً اياها ومذكراً من انه ابن الكرام الاتقياء الذين نذروا

---

(١) أنظر : الديوان ص٧٣.

أنفسهم وأرواحهم للإسلام ولرسالة السماء وللعلم والتقوى فكيف يصح ذلك منه؟ وكيف تغويه العواطف اللاهية عن الجد وعن العمل الإسلامي الذي هو مهيأ له؟ فالغزل ليس من شيمته وليس من فعله ومن ديدنه ، فهو لم يعش تجربة حب وليس له حبيبة .. من هند أو ددٍ أو غيرهما : يقول مخاطباً نفسه وذاكراً اسمه الشعري صراحة :

مه يارضا يابن الكرام الأتقيا

ياغرس روح العلم والاتقان

دع عنك هذا لست أهل بطالةٍ

وانهض إلى ماكنت فيه تضاني

لله درك يانصيحَ نديمه

أيقظتني من غفلة الوسنان

فالشاعر يشكر نصيحه ومن أيقظه من سكرة الهوى ومن غفلة النائم الوسنان فيعدد بعد ذلك معاناته في الليل والنهار من أجل العلم والدراسة .. وما كان يحسه من سعادة وطمأنينة ومن انتشاء وهيامِ روحٍ فكأنه كان يرتشف لُمى عرائس وعذارى عُرب حللن فؤاده ، ويعني بذلك الكتب والمصادر العربية بشكل خاص وكيف كان يقضي الليل منادماً لها .

ويعود مرة أخرى يبرأ نفسه وينفي عنها غوايتها واسترسالها في الغزل فيقول :

مالي وللغزل المهيج فلا أكن	**غزلاً ولم أر مرتع الغزلان**
ما كان هذا ديدني لكنه	**تشبيب شعرٍ لادد الشبان**
اذ مادد منى ولا أنا من ددٍ	**اذ جئت أمدح رحلةً لأواني**

وهنا يحسن التخلص بعد هذه المقدمة الطويلة التي بدأها بالغزل كعادة شعراء العرب القدامى ، ثم لومه لنفسه ونفيه عنها اغراقها في هذا اللون من الشعر وانه لم يعش هذه المعاناة ولم يعرف الحب والهوى من قبل مثل بقية الشبان اللاهين العابثين ... وفي الشطر الثاني من البيت الأخير ينتقل انتقالةً موفقة وجميلة إلى ممدوحه الذي يعبر عنه بمصطلح (الرُحلة) بضم الراء وهو العالم الكبير الذي يرتحل اليه طلاب العلم للدراسة على يديه والتلمذة عليه ومن ثم تأتي أبيات المديح منهمرةً متدفقة تنساب بعذوبة ولين وكأنها سلسال رقيق صاف من غير تعثر أو قلق أو كدر ... صور نقية جميلة تليق بالممدوح فيغدق عليه الصفات والفضائل والسمات التي لم تجتمع في شخص واحد الا عند أولئك الذين زكاهم الله تعالى وأكرمهم بحسن الصفات وأجملها وأتمها .. من الأولياء والصالحين ، فممدوحه الشيخ فضل الرسول هو الجبل الشامخ والعَلم الرفيع المتفرد العالي شموخاً وشمماً وهو البطل الشجاع بل سيد أولئك الشجعان وأقواهم وأجدرهم بهذه الخصيصة ، وهو برج منيع محصن لايمكن الارتقاء اليه أو الوصول إلى قمته ، بل هو حصن مكين محفوظ بقوته ، منيع برصانته معجز الاعداء عن النيل منه أو الدنو اليه ، ثم ينتقل من تلك الصفات المادية التي تتشابك وتتعاشق لتكوين صورة متكاملة تعبر عن المتعة والقوة والرصانة والعلو والشموخ .. ينتقل إلى سمات معنوية وخصائص انسانية ليصفه بالكرم والجود والعطاء فهو البحر المتدفق والمحيط الزاخر .. ، يعطى بلا منه ، ويقدم بلا جفوة أو استكبار ، بل انه يستقبل ضيوفه ببشاشة تنم عن برق ثناياه وهو دليل كرمه ورحمته ، .. تصدق عليه مقولة الشاعر العربي زهير ابن أبي سلمى في المدح :

تراه إذا ما جئته متهللاً

كأنك **تعطيه الذي أنت سائله**

وممدوح شاعرنا جواد كريم مغدق وهو ماجد وليد المجد رضيع المكارم في صباه وفي نشأته ، تربى في أحضان المجد وعلى أثدائه إنه علَم وعالم وعلاّمة يندر مثيله بل هو فائق على أقرانه وأمثاله نال المجد من طرافه ؛ عائلة ونسباً وتعلماً ورعاية فشب ، على البر والصلاح والتقوى انه فضل الرسول ... لنسمعه يقول في مدحه ونسمع حشد الصفات الرائعة والفضائل الكريمة النادرة التي أغدقها الشاعر على ممدوحه :

جبلاً رفيعاً فائقاً شُمّاً علَى
بطلاً شجيعاً سيد الشجعان

برجاً منيعاً مانعاً لا يرتقى
حصناً حصيناً صين بالارصان

بحراً محيطاً زاخراً متدفقاً
برقاً بريقاً باسم الأسنان

جَوْداً مجيداً مجدياً جُوْداً جوا
داً ماجداً مجداً مجيدَ الشّانِ

نوراً منيراً نيراً ناراً على
عليا منائَر نيرُها نوراني

علماً عليماً عالماً علامةً
فضل الرسول الفاضلَ الرباني

رضع المكارم في صباه وحق إذ
ربته ظؤرُ المجد في الاحضان

حتى تربى زاكياً متزكياً
يربو على الأمثال والاقران

ثم يأتي بعد ذلك البيت الآتي :

عَبَدَ المجيدَ فجاءه فضلُ الرسو　　　ل مهنئاً بالفضل والرُّجحانِ

ونقرأ تفسير هذا النص في كتاب (الشيخ أحمد رضا خان شاعراً عربياً) للأستاذ ممتاز الأزهري(١) حيث يرى فيه احتمالين ((الأول ان الشاعر يشير إلى اسم والد الممدوح الذي هو عبد المجيد البدايوني(٢)... وفيه ذكر لاسم الممدوح بعد ذكر اسم والده على سبيل التورية وهذا هو المعنى القريب ، أما المعنى البعيد فهو أن يكون المراد إنّ الممدوح مولانا فضل الرسول البدايوني عَبَد الله تبارك اسمه وهو المراد بقوله (المجيد) (أي الله) وأما قوله اياه(٣) : ((فضل الرسول)) فهو ان الممدوح تعلم العلم وحظى من الدين بما يجعله من أولئك الذين يحظون بشفاعة الرسول ﷺ وان علوم الدين بصفة عامة منة من الله ﷻ علينا بتبليغ رسولنا اياها ، وبالتالي فان من أدركته علوم الدين فقد أدركه شيء من فضل رسول الله ﷺ اذ هو مبلغنا)) .. ولم أجد ضرورة لمثل هذه التفسيرات فالبيت الذي أمامنا يفهم من سياق النص قبله وبعده فهو في رأينا لا يحتمل سوى التفسير الثاني من رؤية الشيخ ممتاز ، فالشاعر يقصد أن ممدوحه يعبد المجيد المتعالي أي انه عبَدَ الله تعالى .. فباركه الله بتقواه وصدقه وطاعته وإيمانه فاكرمه بفضلٍ من عنده كبير وهنأه بما آتاه من فضل ورجحان وعلوٍ. والشاعر بعد ذلك يؤكد صفات للممدوح سبق أن تحدث عنها وهي الجود والكرم والعطاء الفياض حيث تأتيه القلوب الحائرة المحطمة اليائسة فتعود منه وكأنها الظباء العطشى ترد الماء البارد الزلال فتصدر وكلها استرخاء وراحة بال وطمأنينة :

---

(١) أنظر كتاب الأزهري ص٢٨٨.

(٢) ترجمته في المصدر السابق ص٢٧٧ .

(٣) كذا في الأصل ولم أعرف مراده أو قصده.

يأتيه قلب كالهشيم فينثني

خضراً نضيراً ناعم الأغصان

ويرسم صوراً لنورانية الممدوح واشراقاته في لطفه وسخائه وتعامله مع أحبائه من المريدين والتلاميذ والتابعين ، وبالمقابل لذلك صور الابراق واللمعان والغضب الشديد الذي يقدح ناراً تحرق الاعداء والمعاندين والمرتدين من ذوي النحل والدعوات الزائفة المنحرفة : وكل هذه الاشراقات الربانية للأنصار وتلك التوهجات الحارقة للاعداء ما هي الا عطايا من عطايا الله تعالى اكراماً لهذا الإمام وتعزيزاً له ليقارع أعداء الدين .

تلك **البوارق من شوارق ربّنا**

لا ماتجلى واختفى في الآن

فالممدوح اذن هو أعلى رتبة في عائلته وأكثرها سمواً ورفعة ، يقول شاعرنا مشيراً إلى ذلك :

يامجد سلسلة المجيديين في أفضالها إذ زانها فضلان

ولم يكتف الشاعر بحشد تلك الصفات والسمات والخصائص المادية والمعنوية لممدوحه بل عاد ثانية إلى ذكر سعة علمه وتعدد معارفه فهو موسوعة علمية متنقلة تحتوي الكثير من المعارف : فهو عالم في التصوف (علم القلب) والتفسير (تأويل القرآن) والحديث باسناده ومتونه وفي علم أسماء الرجال وعلم الأصول وعلم الفروع وفي الأدب والنحو والصرف وما يتفرع منها وكذلك هو عالم في الطب[1] ((فالممدوح لا يضاهى ولا يدانى في تلك العلوم ، فهو سابق بل رأس وامام فيها ، وكل هذه العلوم سخرها الممدوح لصيانة نفسه وذاته عن نزعات الشيطان وهي مسخرة لخدمة المسلمين وتوجيههم وافادتهم :

---

(١) أنظر : الديوان ص٧٦ حيث أورد نسب هذه العلوم إلى الممدوح.

هذي العلوم ومن حواها كان في

مندوحةٍ عن منزغٍ شيطاني

يافلسفي اليك **عنا أنت في**

إغراكَ **أو** اغوالكَ **أو طغيان**

تعساً لمن يؤتيك **ذِمةَ قلبه**

سحقاً لمن يأتيك **باستحسان**

ومن هنا يتضح لنا أن لممدوح شاعرنا أبعاداً ثلاثة تتكاثف فيما بينها وتتلاحم لترسم صورة واحدة للممدوح .. ففي البعد الأول قدم الشاعر مواصفات الممدوح فضل الرسول المادية من قوة وشجاعة وفي البعد الثاني أعطاه سمات معنوية من كرم وجود وخلق وفضائل .. ثم كان البعد الأخير الذي اشتمل على علوم الممدوح وسعة أفقه ورصانة علمه وفكره . ومثل هذه الشخصية المتكاملة التي حباها الله تعالى القوة والبسطة والشموخ والرفعة ومنها شجاعة الكرم والجود والعطاء .. وهيأ لها عقلية ذكية مستوعبة وحافظة قوية ونباهة حادة .. ان مثل هذه الشخصية يندر وجودها ويقل مثيلها. وهذا العمل يشير إلى مدى اعجاب الشاعر بممدوحه ومدى تأثره بخلقه وعلمه ومكانته. فهو القدوة والمثال والنموذج الذي يحب كل انسان جادٍ أن يحذو حذوها وأن يصل إلى ما وصلت اليه.

بعد هذه المدائح الطويلة وبعد تعداد فضائل الممدوح ومكارمه وخلقه ودينه.. يأخذ الشاعر بالتعرض لاعداء الدين الإسلامي فيشن عليهم هجاءً مراً وهجوماً قاسياً، وسوف نتعرض إلى ذلك في موضوع الهجاء.ثم بعد ذلك يتوجه الشاعر مستغيثاً متوسلاً وداعياً ذاته إلى التوبة وطلب المغفرة والشفاعة وأن يعمق الله ايمانه ويحقق له زيارة الاماكن المقدسة ومقام الرسول المصطفى ﷺ والأولياء الصالحين على رغم أنف الادعياء والمارقين من الذين يقولون بحرمة زيارة قبور الاولياء والتبرك بها طلباً للشفاعة والنجاة :

ثق بالرسول المستعان وفضله

وأتِ المزار الباهر السلطـان

رغماً لانف المستنكف الـــــ

محروم عن بركات ذا الاتيان

وقد وضح الأستاذ ممتاز الأزهري[١] أن المزار المقصود في البيت الأول هو ضريح الشيخ معين الدين الجشتي الأجميري .. رغم ان الشاعر لم يذكر اسمه صراحة وانما جاء بما يدل عليه .. فقد توجه اليه رافعاً يديه مثلما يفعل زوار الحرم المكي أو القبر النبوي ﷺ بالمدينة المنورة .. وخاطبه بأسماء أو صفات قريبة من اسمه مثل قوله يامعين الحق ، ويازين الزمان ، وياعين سرّ الحق .. وكان بامكان الشاعر أن يأتي باسمه صراحة مع الاحتفاظ بالوزن الشعري فيحل كلمة معين الدين محل كلمة معين الحق.. ولا يقع اختلافُ في تفعيلة البيت .. وعلى كل حـال فـان شخصية الاجميري من الشخصيات المسلمة المعروفة وكان صوفياً ورعـاً ووليـاً صالحاً وداعية مؤثرة في شبه القارة الهندية حيث أسلم على يديه عدة ملايين مـن الهندوس[٢] وكانت وفاته سنة ٥٣٣هـ- الموافق ١١٤٢م ((وقبره مشهور ظاهر فـي مدينة أجمير يزار ويتبرك به)) [٣].

ولم يكن الممدوح أستاذاً للشاعر أو معاصراً له أو من أصفيائه وإنما كـان يفصل بينهما بون زمني شاسع .. ولكنها الرابطة الروحية والنور الربـاني الـذي يشمل الصوفية والأولياء والصالحين فيحتضنهم ويكللهم فيصبحوا وكأنهم أخوة فـي عائلة واحدة. فالشاعر متأثر بشخصية الممدوح الأجميري لما قرأه أو سمعه عنـه

---

(١) أنظر : الشيخ أحمد رضا خان ص٣٠١ وما بعدها.

(٢) أنظر : نفسه ، هامش ص٣٠٠.

(٣) المصدر نفسه

فلجأ إلى ضريحه يتبارك به ويجعل منه شفيعاً ووسيطاً لنصرته واستجابة دعواته ، وقبول توبته من الذنوب والمآثم التي يحس بها أولئك الصالحون الذين يغمرهم دائماً الشعور بالذنب والتوجه إلى الله طلباً للمغفرة والعفو. وبما ان هذا الشيخ الممدوح قد حظى بمكانة رفيعة عند ربه ونال الدرجات العلى في فردوس المنى فهو يطلب منه الشفاعة عند المصطفى محمد ﷺ وأمله بذلك كبير لان باب الرحمة والمغفرة والعناية لا يسد أبداً في وجه المتعبين الصابرين المؤمنين يقول شاعرنا بعد أن التجأ إلى مزار الممدوح يخاطبه :

عظم العِلوُ فأنت فردوس المنى　　　كرمَ الدنُو فأنت قطف وان

....

أرجو الشفاعة منك عند ابيك اذ　　　باب العناية لا يسدّ لعان

وهو اذ يلتجئ اليه فان بينهما صلة ونسب روحي وإيماني ؛ فهما يرتبطان بصلة الدين والورع والتقوى ويلتقيان عند جذر الإسلام ، انهما ينهلان ويرضعان من ثدي واحدة. ونلاحظ أن الشاعر نسب في البيت الأخير ممدوحه (الاجميري) إلى النبي ﷺ وخاطبه طالباً الشفاعة عند أبيه أي النبي محمد ﷺ فهذا من باب التجوز لان النبي ﷺ هو الأب الروحي لجميع المسلمين ، وهو المعلم والموجه والنصير لهم ، ولقد عزز الشيخ ممتاز هذه الأبوية للنبي على جميع المسلمين بما ورد من تفسير السيوطي (الدر المنثور في التفسير المأثور) من انه وردت قراءة للآية الكريمة في سورة الأحزاب على الشكل الآتي : ((النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم))[1] ونحن لا نؤيد ماذهب اليه الاستاذ ممتاز الازهري من تعليل أبوة النبي ﷺ

([1]) جلال الدين السيوطي : ((أخرج الفريابي وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ انه كان يقرأ هذه الآية (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو

للممدوح ولاسيما ما ذكره من ان الممدوح الاجميري يرجع في نسبه إلى الرسول ﷺ فهذا أمر لم يرد ولم تذكره المصادر فهو غير دقيق ولا موثق .. كما ان الأستاذ ممتاز لم يثبته في هامش صفحة ٣٠٠ من كتابه عندما عرف بالممدوح الاجميري.

ويعيش الشاعر هاجس الخوف والشعور بالذنب وتنمو عنده الحاجة إلى الاكثار من زيارة أضرحة الأولياء والصالحين لعله يجد عندهم الاستجابة والقبول ويحصل على الشفاعة والاغاثة .. فهم ليسوا الا وسيلة وواسطة للتشفع عند الله ونبيه .. ولم يكتف الشاعر بزيارة قبر معين الدين وانما دعا نفسه بصيغة المخاطب أن ينهض إلى زيارة قبر عبد المجيد الذي هو جد الممدوح فضل الرسول :

فاذا رأيت إجابة فانهض إلى — **قبر المجيد الأمجد الروحاني**
وهناك **فاستفرغ** بجهدك **للدعا** — **ان المقام مقامُ الاستيمان**[1]
أخضل ثراه بعبرة هطالة — **أفما ترى طلاً على ريحان**

فهناك عند ضريحه المبارك ادعو وابذل جهدك كله من أجل النجاة والرجاء والاستجابة ، فليس كثيراً أن تبكي وتذرف الدموع وأن تخضل ثراه بعبراتك الساخنات ، فقبره ليس قبراً اعتيادياً وانما هو باقة من ريحان وروضة من رياض الجنة تضم رجلاً صالحاً نقياً.

ويكرر الصفات المعتادة التي تأتي في قصائد المديح من الكرم والجود واغاثة الملهوف واعانة المحتاج وانه حلاّل المشاكل ودفّاع المعضلات والهموم ..

أب لهم) وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة .. قال كان في الحرف الأول : ((النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم))

أنظر : الدر المنثور ط١ . دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٠ ، ج٥ ص٣٥١ ، وأنظر الأستاذ ممتاز الأزهري : الشيخ أحمد رضا خان : هامش صفحة ٣٠٣.

(١) الاستيمان : لعلها من (أستم القومِ) : وسطهم وأشرافهم ، والشطر الثاني فيه خلل عروضي.

ويقرر الشاعر بتواضع واعتراف بالمعروف وبالمواقف التي وقفها معه الممدوح .. فقد رعاه وقيده بمعروفه وسخائه وحماه من الاعداء الذين أحاطوا به لقتله ... (ومن وجد الاحسان قيداً تقيداً) يقول :

ما بعت نفسي منه بل هو بالسخا والجود من ايدي العُنود شراني

يوماً احاط بي العدى ودنا الردى اذ جا يجرّ رداءه فرعاني

فلولا وقفته تلك ولولا رعايته ونصرته لكان من الهالكين بأيدي الاعداء من الخارجين على الدين . فهذا فضل كبير لا يمكن للشاعر أن ينساه أو يغفل ذكره وهو بصدد المديح والثناء .

ولما فرغ من مدح الشيخ عبد المجيد البدايوني وابنه فضل الرسول تخلص بالتفاتة جميلة وبمخرج يسير وسهل الى مدح حفيده الشيخ عبد القادر البدايوني وهو من معاصري الشاعر وأصفيائه يقول بعد الدعاء لهما بان يجزيهما الله مثوبة من عنده وأن يجعل جنات عدن سكناً لهما قريبين من نبي الرحمة ﷺ .

تمّ الدعا فارجع غنياً غانماً وأقصد سميّ السيد البغداني

فمقصده انه سيتوجه الى مدح الشيخ عبد القادر البدايوني سمي الشيخ الامام عبد القادر الجيلاني .. وقد علل الاستاذ ممتاز الأزهري دوافع وأسباب توجه شاعرنا الى مديح الحفيد عبد القادر قائلاً " أحبه (أي الشاعر) لتقواه وورعه ولكونه سمياً للشيخ عبد القادر الجيلاني ومتربياً بالتربية الاسلامية على يد والده مولانا فضل الرسول " [١].

فالابن امتداد لابيه وجده ومن يشابه أبه فما ظلم ، وهو من بيت علم وحكمة وتصوف وورع وهو :

العالم العلامة العلم الذي ذكراه فاتحة بكل معان

---

(١) الشيخ أحمد رضا خان ص٢٦٨.

وهو البحر كما فيه الخير والبركة والنعمة فيه الموت الزؤام والسم القاتل المردي .. فالممدوح هو ظل ظليل ونعمة وارفة للمؤمنين والصالحين من المسلمين ولكنه الغضب الهائج والسيف القاطع للمنافقين والادعياء والكفرة [١].

ويضيف ان من فضائل الممدوح وحسناته أنه كان محدثاً برعاً وفطناً لأحاديث النبي ﷺ الشريفة ضابطاً لرواتها وسلسلتها وعارفاً بما فيها من تدليس وعلل ووهم وشذوذ الى غير ذلك مما يتعلق بعلم الحديث النبوي [٢]... فالشيخ عبد القادر البدايوني هو مطلب كل الناجين ومقصد التائبين والحامي من ضيم الدهر وطوارق الليالي.

يا باغياً لنجاتك الزم غرزه [٣].   يحميك **عند طوارق الحدثان**

وبذلك يكون الشاعر استغرق في مدحه السلسلة الذهبية لعائلة البدايوني ... الجد (عبد المجيد) والابن (فضل الرسول) ثم الحفيد (عبد القادر) فهذه القصيدة المطولة غير مقتصرة في غرضها على مدح فضل الرسول كما جاء ذلك في العنوان وكما أشار الى ذلك شارح الديوان وانما كانت معنية باكثر من شخصية وأكثر من رجل دين من الأولياء والصالحين لكنه أعطى ثقلاً ومساحة أوسع لعائلة البدايوني لأنها في نظره سلسلة علمية تنمو بصعود دائم كابر عن كابر وأب عن جدٍ... وأن هذه العائلة الكريمة النجيبة ذات الفضائل والعلم والمكانة الدينية العالية لا يشقى من يصاحبهم ولا يأسى من يجالسهم .. فاجتماعاتهم وندواتهم تتضمخ بالعطر والطيب .

فالقوم لايشقى بهم جلساؤهم   **والطيب حظٌّ فيه للندمانِ**

---

(١) انظر الابيات في الديوان ص: ٨٠.

(٢) انظر نفسه ص: ٨١.

(٣) غرزه : ركابه .

وهذا المعنى مأخوذ من الحديث الشريف ، الذي يتحدث عن حوارٍ سماوي بين الله وملائكته ينقلون فيه وصفاً لمجلس أناس صالحين ذاكرين .. فيغفر الله لهم ويشمل مجالسيهم وزائريهم بهذا الغفران ... ويقول : أي -الله تعالى - مخاطباً الملائكة " إني أشهدكم اني قد غفرت لهم ، قال فيقولون - أي الملائكة - فان فيهم فلاناً الخطّاء لم يردهم وانما جاء لحاجة فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ..[1].

وينتقل الشاعر بعد أبيات عديدة في هجاء المارقين وأصحاب الدعوات الزائفة المزيفة - إلى مخاطبة نفسه مذكراً إياها ألا تغرق في مثل هذه الحثالات وهؤلاءَ التافهين من المدعين الاشرار وأن يستريح ويريح نفسه بعبق ذكرى الصالحين والائمة المقربين فلايجد أمامه راحة بال وطمأنينة فؤاد سوى أن يقصد الشيخ الامام عبد القادر الجيلاني فهو ملاذه وهو ناصره وهو عونه فيأخذ بمثل هذه الاذكار الجميلة عند البيت (١٥٩) من القصيدة النونية ، وتستغرقه الحال ويستولى عليه المدح والثناء ومعايشة الذكرى العطرة حتى تطول مدائحه في الجيلاني لاكثر من ثلاثين بيتاً ، وهي تصلح أن تكون قصيدة مستقلة في غرضها . وقد بناها الشاعر على مجموعة قيم وفضائل تليق بالامام الكبير وشيخ الصوفية وصاحب الطريقة القادرية التي ينتمي اليها الشاعر البدايوني ، وتعتقد من خلال معاني الابيات أنه كان يستغيث بالشيخ الكيلاني ويستعين به للرد على الفاسدين المفسدين ذوي النحل المنحرفة والافكار السيئة من حثالات القوم ، يقول مخاطباً ذاته :

صهْ[2] يارضاً لا تكترث لحثالةٍ سنطير في نسمٍ[3] وفي نسمان

([1]) مسند أحمد بن حنبل ،دار صادر -بيروت ج٢ ص٣٥١-٣٥٢ ، وانظر نص الحديث في كتاب الأزهري : الشيخ أحمد رضا خان ص٣٠٩.

([2]) صه: اسم فعل بمعنى اصمت .

([3]) نسم: تنفس.

لنسمعه في استغاثته وفي توسله :

لله شيئاً للفقير العاني ... يا شيخُ عبد القادر الجيلاني

لله شيئاً للأثيم الجاني ... ياابن الكريم[١] الدائم الغفران

إنها ترجّيات مستغيث طالب العون والمساعدة ... فهو الفقير الى الله تعالى والأسير بذنوبه الذي ينتظر البشير والفرج ... وهو – أي الشاعر – يتلهف الى شيء من رحمة الله وغفرانه .. لأنه مثقل بالاثام والجنايات .. فذلك إحساس المتبتلين الصوفية الذين يغرقون في الشعور بالقصور والتقصير تجاه الخالق انهم مهما قدموا من عبادات وأفعال حسنة وصالحة يبقون في خوف ووجل . لان النفس الانسانية أمارة وقهارة ومولعة بالشهوات والطلبات الدنيوية ..

ثم بعد ذلك ينحو الشاعر منحىً صوفياً أصيلاً مضيفاً على أبياته مسحةً فلسفية يقول :

يا من مكانته بجمع الاوليا ... كمكانة الارواح في الابدان

والنورفي الانسانوالانسان في ال ... أعيان والأعيان في الجثمان

ثم يتوجه الامام الجيلاني بهمومه وآلامه ومعاناته التي يعيشها يومياً ويخاطبه موضحاً أن ما بينهما أقوى من صلة القرابة والنسب .. وهي رابطة الولاء والحب وحسن الاعتقاد قائلاً :

يا غوثنا قلبي يجود بنفسه ... ونداك خير ندا على الموتان[٢].

أيصيبه موت وأنت مسيحه ... ومحيي دين الله لا ينساني

جدلي بما أملته يا موئلي ... ياروح دين ، أطيب الأديان

(١) ابن الكريم: يقصد به النبي محمد ﷺ.

(٢) الموتان : يريد بها الارض الميتة.

فآماله واسعة وكبيرة وكلها معقودة علـى الاسـتجابة والتقبـل والرضـا ، والشاعر لا ييأس من الاستجابة والاغاثة والعون .. فكم من أرض صفصف قاعٍ قد أصابها وابل فطل فغدت بعد ذلك رياضاً زاهية وحدائق غناء ، وكم من قفر تحول الى مغنى والى حقول زاهرة بفضل ما غمرها من جود السماء ..

فالقفر ليس بمقفر من جودكم　　　والجود لا يختص بالبستان

ويلتفت الى ذاته والى ما تحمله من ذنوب وآثام .. ويتوسل بـان تمسـحها رحمة الرحمن وأن يكون عبداً هادياً مهدياً وراضياً مرضياً :

لا بأس إن أورت ذنوبي نارها　　　تطفى حريق شنانها بشنان

فاجعل عُبيدك هادياً مهدياً　　　يمحو الضلالة في رضى الرحمن

أأضاع فقراً أم أضاع مذلـةً ؟　　　أو لست أنت بضامني وضماني ؟

ثم يصرح بعد ذلك بان جميع ما ذكره من معاناة ومن همـوم وتضـرعات ومن آثام وذنوب تُثقل كاهله وتزيد من أحزانه ليس سوى هموم يبثها أمـام شـيخه الجيلاني ليخفف من وطئتها ويريح ذاته ووجدانه من ثقلها .. ولـيس غيـر سـيده وغوثه وإمامه من يعينه ويستجيب لتضرعاته .. وأمله كبير وواسـع فـي رحمـة الرحمن ورضاه .

هذي هموم كلها داء ولا　　　كرزية ألقى من الهجران

فهذه الابيات مناجاة صوفية ونفحات روحانية يبثها ضمير شاعرنا وتجـيش بها عواطفه ووجدانه ..

ومن يتتبع المدح في ديوان الامام أحمد رضـا خـان البريلـوي القـادري البركاتي يتوصل الى ان قصيدته الدالية الثانية ذات المطلع :

هي الدنيا تُبيد ولا تفيد فأفٍّ لمن يُريد ومن يرود[١].

تتضمن مدح عدد كبير من الشخصيات الدينية المعروفة آنذاك والتي كانت تعرف بأهل الجماعة والسنة في شبه القارة الهندية ، ولقد بلغ عدد الذين ذكرهم في هذه القصيدة خمسةً وخمسين شخصية من العلماء والصالحين .. وكان سبب ايرادهم وتعدادهم في هذه القصيدة انه أنشد هذه الرائعة في محفل عقد بمدينة بتنه ضم عدداً من علماء أهل السنة والجماعة [٢]وكان الغرض من هذا الاجتماع هو الرد على جمعية ندوة العلماء وتسفية عقائدهم وكشف أباطيلهم [٣]، وقد استهل القصيدة بابيات صوفية وحكم ومواعظ ثم بعدها شنّ حملة عنيفة وهجاء مراً على جمعية الندوة ، ولانريد أن نستطرد في ذلك فسوف نتحدث عن هذا الموضوع في باب الهجاء.

من البيت السادس والخمسين يبدأ شاعرنا بذكر فضائل علماء أهل السنة والجماعة ومنازلهم وعلمهم وورعهم وتفقههم الى غير ذلك بعد أن أشار الى قوتهم وصلابتهم في وجه الباطل .. وأن مجالسهم هي ندوات علم وتعبد وايمان تحفُ بهم الملائكة ويذكرهم الله فيمن عنده يقول :

بمجلسهم تحفّ طيور قدسي ولا يشقى بهم لهم قعيد

وهذا المعنى مأخوذ من الحديث النبوي الشريف ***[لا يقعد قوم يذكرون الله عزّ وجل الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده]***[٤]. فجمعهم مبارك وحديثهم مبرور يتعطر بشذى الايمان والرحمة فتحف بهم السكينة والطمأنينة لانهم من الاولياء الصالحين العابدين ، فطيور القدس

---

(١) الديوان ص١١٦.

(٢) انظر الديوان ١١٥

(٣) نفسه١١٤.

(٤) أنظر : صحيح مسلم ق٢ ج٢/٢٢٧ ط١ ،مصطفى البابي واولاده بمصر (١٣٧٧هـ).

هنا أشارة الى الملائكة.. أما قوله في الشطر الثاني **(ولا يشقى بهم لهم قعيد)** فهو متأثر بالحديث النبوي الذي يتحدث عما ينقله الملائكة الى العرش العظيم من مشاهدات لمجالس العلماء والذاكرين والمتعوذين من النار ومن كل شيطان رجيم .. وقد سبق الأشارة إليه[١]. ثم يشير الى بركة هذه الجماعة وهداها وانهم يحملون الخير والنعمة معهم أنى حلوا .. حتى لتغدوا الفيافي والقفار بحلولهم بساتين وجنات ورياض :

هدىً هادٍ مُهدّىً من لذيهم — بديدٌ أو عديدٌ أو جديد

اذا حلّوا تمصرت الفيافي — وحين ترحلوا الامصارُ بيدُ

فهؤلاء رجالات أهل السنة والجماعة يمثلون حزب الله ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (سورة المائدة اية ٥٦).

أُولاء الحزب حزب الله حقاً — وسير حزب الأعداء المريد[٢].

ويأتي بعد ذلك بذكر أسماء العلماء والكبراء والاتقياء الصالحين من حزب الله الذين تضمهم أهل السنة والجماعة وبشير اشارات موجزة مختصرة لفضائل بعض أولئك العلماء فالمقام لايتسع للتفصيل والاستطراد ورغم انه ذكر خمسة وخمسين شخصية مرموقة بعلمها وتقواها فهناك آخرون كثيرون لا يمكن ذكرهم في هذه القصيدة:

أسمي بعضهم أسماء نظمي — فليس الكلّ يحتملُ النشيد

---

(١) أنظر : مسند الامام أحمد بن حنبل ج٢ ص٣٥١ ، ٣٥٢.

(٢) المريد .. لعلها الشيطان.

وأرى انه أورد أسماء أولئك وهو بصدد التصدي لجمعية الندوة وعقيدتهم المعوجة فلأنه أراد المباهاة واظهار القوة والتحدي وكشف زيف الاعداء وبطلان عقيدتهم وضعف حجتهم وقلة عددهم "وباضدادها تعرف الأشياء " .. وكأنه يريد أن يقول لهم .. هؤلاء علماؤنا ورجالنا ومفكرونا .. فاين رجالكم وعلماؤكم ؟ ولا أريد أن استعرض جميع الممدوحين وانما سأشير الى بعضهم ممن أعتقد انهم يمثلون صفوةً ومكانة بين اخوانهم من العلماء ، وتنتصب في مقدمة القوم شخصية محب الرسول البدايوني التي تعتبر أقوى الشخصيات وأهمها والتي وجهت اليها القصيدة.. والى عائلتها (السلسلة الذهبية) .. الى والد فضل الرسول البدايوني والى فضل الرسول .. يقول :

وقدوةُ جمعهم تاج الفحول   **إمام الحق ليس له نديد**

ويقصد بتاج الفحول حضرة الشيخ المولوي الحافظ الحاج محب الرسول الشاه محمد عبد القادر البدايوني .. وهو أعلى حضرة في الجماعة وهو عظيم البركة .كما ورد في شرح الديوان [١] ، وهذا العالم قدوة أهل السنة والجماعة وامام الحق الفريد الذي لا يوجد نضير أو مثيل له :

وما أدراك **ما تاج الفحول**   **بفضل المجد فضله المجيد**

وتوَّجهُ بتاج الفضل حقاً   **رسول الله ليس له ضديد**

فقد انعم الله على الممدوح وتوَّجه رسوله الكريم بتاج الرفعة والسمو والمكانة العالية ، ومن يكن رسول الله حليفه ونصيره فلن يجرؤ أحد على مخالفته أو أن يكون ضده وضديده .

جواد جيدٌ جودٌ مجادٌ   **مجيدٌ ماجدٌ مجد مُجيد**

وذا فضل الرسول لمهتديه   **فكيف يناله غاوٍ كنودٌ**

---

(١) انظر الديوان : ص١٢٩ رقم :٣.

فالممدوح كريم الشمائل معطاء فياض وهذا من كرم الرسول ﷺ وفضله عليه ، فكيف يتمكن عدو أو حقود من النيل منه أو الاساءة اليه !؟ فهو في حرص الله ورسوله وهو في حمايته ، ومن كان الرسول ﷺ مهديه ومحبه فان الله حاميه ، من أحب الرسول فقد أحبه الله .

وقال شاعرنا مادحاً عالماً آخر من علماء أهل السنة والجماعة من أولى الفضائل والمكارم وممن يتحلى بالقوة والصمود والمتانة .. اسمه صمد وهو صمد ـ باذن الله ـ فهو اسم على مسمى :

وعبدٌ سيدٌ صدرُ الفضائل ··· بذي صمدٍ إلى الصّمد استفيدوا

ويعنى به الحافظ الحاج السيد الشاه محمد عبد الصمد النقوي السهسواني الجشتي رئيس مجلس علماء أهل السنة ببريلي [١]..

وجاء ضمن الممدوحين الشيخ عبد المقتدر بن تاج الفحول محب الرسول عبد القادر بدايوني بقوله :

وعبد المقتدر أقدرتَ قدره ··· رفيع فوق ما اغتاظ الحسود

وللقيوم عبدٌ نصرٌ دينه ··· يقوم به وإن قُطع الوريد

عليم عالم علم شهير ··· حكيم محكم حكم شهيد

فهذا العالم له من المكانة والرفعة بما يغيظ الاعداء ويملأ قلوبهم ألماً لما حققه من سمو وعلو ومقام وان الناس يتمسكون باذياله لما له من علم ومقدرة وتضحية ولما يمتاز به من حكمة وسعة أفق وفكر.

وبعد أكثر من ١١٤ بيتاً يلتفت الشاعر معتذراً للذين لم يشر اليهم ولم يذكرهم في قصيده رغم انهم جميعاً أصول وانه لو أراد ذكر الفروع لطال به المقام وأمتد به القصيد:

---

(١) أنظر الديوان : ص١٢٩رقم (٣٥).

ختمت كما بدأت بـه ليهنيك　　حسن البدء والرجعى وحيد[١].

أصول جلهم والفرع أكثـر　　وان جمعوا فاضعاف شهود

وضيق نطاق نطقي عذر نقصي　　وعفوهم كثير لا زهيد

فالقصيدة من الشعر الاسلامي السياسي أو ما يشبه ذلك لانه في الاصل نظمها للرد على جمعية الندوة ولمهاجمتهم وفضح أفكارهم ومبادئهم ،وقد قدم بالمقابل صورة مشرقة وجميلة لجماعته وحزبه الذي هو حزب الله كما عبر عنه .. فالقصيدة عبارة عن صورتين متقابلتين متناقضتين سوداء وبيضاء مظلمة ومشرقة ، قبيحة وجميلة .. وترك الامر لنباهة السامعين والقارئين ليعرفوا حقيقة الفريقين .. فالحق أبلج ولا يحتاج الى دليل .

وفي الديوان مقطوعات عديدة في المدح بعضها يتكون من ثلاثة أبيات وبعضها قد يزيد الى ضعف ذلك أو يدنو من عدد أصابع اليدين كما ان هناك رباعيات وأبيات متفرقات ،وهي في أغراض قريبة من غرضنا الذي هو المديح الديني ومديح الاولياء والصالحين ، وضمّ الديوان أكثر من رباعية في الدعاء والرجاء وفي حمد الله تعالى ، وفي التوسل الى الحق العزيز والدعاء اليه متوسلاً بأولياء الله الصالحين وبخاصة الشيخ عبد القادر الكيلاني[٢]، وقد استقصى محقق الديوان كل ماجاء من شعر للامام أحمد رضا خان البريلوي ،فلم يترك شيئاً حتى الابيات المتفرقة التي وردت في بعض المراجع وتتخللها كلمات أو حروف أعجمية : أردية أو فارسية وهي في غرض المدح الديني : من أمثال ذلك قوله [٣]:

---

(١) الديوان ص١٢٢.

(٢) انظر الديوان الصفحات ٢٠٧-٢٠٩.

(٣) الديوان ص٢٢٨.

ياربّ بجمال نام[١] عبد القادر   يارب بنوال عام[٢] عبد القادر
انّ من الذوق لسحر همـــــــه[٣]   ان من الشعر لحكمة تمـــام

وقد أرجع المحقق البيتين الى ديوان الشاعر باللغة الاردية (حدائق بخشـش) وأرى أن معنى البيت الثاني مأخوذ من الحديث النبوي الشريف ***[ان من الشعر لحكمـة وان من البيان لسحراً]***.

وقد تفرقت منظوماته المدحية وتوزعت ولكنها في عمومهـا توجـه الـى شخصيات دينية اسلامية ، أعجب بها الشاعر أو تتلمذ على يدها أو تتلمذت عليـه وملكت لبه واعجابه بما تمتلكه من ايمان عميق وهداية وصلاح ، فلم يكـن مدحـه لغاية دنيوية أو منفعة شخصية أو حب في جاه أو مال وانما كان يتأسى دائماً بالخلق الاسلامي القويم ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(الحجرات: من الآيـة١٣) فـاين تكون التقوى وأين تكون إضاءة الايمان وروح الصفاء تجد عنده صـداها المبـين وتتوثق أواصر المحبة الروحية بينه وبينهم .. فهو كما قال في نونيته[٤] .

لا أسأل الأمراء بـــل اياك اذ   لم يبن باب الفضل في الايوان
أرجو عطاءك كارهاً لعطائهـم   اذ ليس باب المجد في الديوان
جانبت ظلمتهم وجئت اليك اذ   ما ثمّ باب النور في وجدانـي

---

(١) نام :اسم أي اسم عبد القادر (وقد استعنا لتوضيح معاني المفردات الاعجمية بشارح الـديوان وببعض الطلبة الهنود).

(٢) عام

(٣) همه : كل أو جميع أي من الذوق لسحر جميعه.

(٤) الديوان ص٧٩.

فمديحه لأولئك الناس منطلق من خيط النور الذي يشده اليهم .. وهو يكره عطاء الامراء وهداياهم ويحس بظلمة قاتمة قاتلة اذا توجه اليهم ، بينما يشعر في رحابهم بالامان والاطمئنان وينغمر وجدانه بنور دافق ساطع .. فاين هذا من ذاك ؟

وفي بعض تلك المقطوعات يستوقفنا نموذج مدحي مطلعه :

يا صاحبي قفا لما يعنينا　　　وادٍ شممنا منه نفحةً سينا[١].

وهي من تقريض رسالة (العسل المصفى من عقائد أرباب سنة المصطفى) التي صنفها فضيلة الامام السيد الشاه أبو الحسين أحمد النوري وطبعت الرسالة بمدينة ميرنة بالهند ١٢٩٨هـ [٢]. وتضم بين أبياتها مدحاً لمصنف الرسالة المذكورة يقول شاعرنا :

طوبى لابناء السبيل اذا اهتدوا　　　ومشوا لهذا النور مُنقادينا[٣].

وأراه يقصد بأبناء السبيل المهتدين والسائرين في غمرة نور الايمان الصوفية لان الوصف ينطبق عليهم .

أكرم بنارٍ ضوؤها يجلو الدجى　　　من أحمد النوري جاء مبينا

فاسم الممدوح مذكور صراحة كما ان كتابه الذي يشبه النار الحارقة لأهل البدع والإنحراف ، وهو في الوقت نفسه ، نور وهداية واشراق ايماني وجداني لأهل الصلاح والتقوى .. وهو فوق ذلك :

نورالهدى بحر التقى بدر النُقى　　　أضحى لـه حفظ الاله معينا

من آل من رضى البلا في كربلا　　　من أهل من خلق الحسين حسينا

فالمدوح يرجع بنسبه الى الحسين شهيد كربلاء (ع) .

---

(١) الديوان ص١٦٠.

(٢) نفسه ص١٦١.

(٣) نفسه .

يا قوم هذا الحق هذا المنتقى هذا النجاة إن اتخذتم دينا

ولاينسى الشاعر أن يأتي بعنوان الرسالة بقوله :

عسل مصفى باليقين فلم يذر بذواقه ظناً ولا تخمينا

فالرسالة بجوهرها وأصالتها لا يدخلها الشك والتخمين والارتياب فهي الحق اليقين وهي العسل المصفى المنقى من كل شائبه .

وله مقطوعة في الممدوح السابق نفسه السيد الشاه أبي الحسين أحمد النوري.. مقرضاً رسالة ثانية له بعنوان (سراج العوارف في الوصايا والمعارف " التي طبعت لاكثر من مرة كان آخرها سنة ١٤٠٨ هـ الموافق ١٩٨٧م.

قال شاعرنا مادحاً:

أنا سيدي يا ابن عزّ غطارفْ ويا أحمد النور نور الأعارف [١].

ويعنى في الشطر الثاني الممدوح (أحمد النوري أبا الحسين)

كلامك نور بهاء، السلاسل وشهدٌ مصفى عن الزيغ صارف

——————— ———————

ولا غرو ان جاء منك سراج فانك نوريٌ نادي المعارف

أرانا سراجك بالليل شمساً وشمس بليلٍ عجيبٌ وطارف

فالرسالة إذن تشبه التي قبلها فهي مصباح منير وسراج وهاج كأنه الشمس في منتصف ليل دامس .. وهل سمعتم بمثل هذه الطريقة النادرة أن تشرق لشمس في الليل، فذلك من الخوارق وكذلك حال رسالة سراج المعارف فهي الاخرى من الخوارق التي تكتسح ظلمة الافكار المنحرفة والأهواء الزائفة التي كانت شائعة في شبه القارة الهندية وتطرد كلّ غبش أو ظلمة.

---

(١) الديوان ١٩٥.

الفخر :

يعد الفخر غرضاً من الأغراض الشعرية المعروفة في ديوان العرب منذ العصر الجاهلي .. وهو فن قريب من فن المديح .. لانه ذكر للمفاخر والامجاد والصفات العالية والمواقف الفاخرة التي يعتز بها الانسان وتتباهى بها عائلته وعشيرته وربما أمته أيضاً.. **فالمدح ذكر الثناء والمفاخر للآخرين أما إذا وجهت تلك الصفات إلى ذات الشاعر نفسه أو إلى عائلته فتكون حينذاك فخراً.**

وفي عودة إلى ديوان الشاعر أحمد رضا خان البريلوي القادري البركاتي . نجد له أبياتاً تنضوي تحت هذا اللون الشعري ، وهذه الابيات إما أن تأتي ضمن قصائد أو ترد مستقلة بذاتها :

فمما جاء ضمن مطولاته يفتخر بنفسه وعائلته :

مه يارضا ياابن الكرام الأتقيا   ياغرس دومِ العلم والاتقان[1].
دع عنك هذا لست أهل بطالة   وانهض إلى ما كنت فيه تضاني

فالشاعر يشعر بتأنيب الضمير من انه استطرق في الغزل وأطال نَفَسَه فيه فكأن شيئاً داخلياً أيقظه ونبهه فخاطب نفسه بضعة أبيات يلومها ويعنفها ويذكّرها بانها لم تخلق لهذا الشأن ولم تنشأ على هذا الدرب فهو ابن الكرام الاتقياء الورعين السالكين درب الهدى ... وهو نبتة أينعت وازدهرت في دوح العلم والمعرفة والاتقان .. وهذا فخر ـــ ولا شك ـــ بمنزلة أهله وأصله.

وفي المطولة الدالية نجده ـــ بعد أن ذكر عدة أسماء من أهل السنة والجماعة يشير إلى ذاته وإلى علمه ومؤلفاته وإلى دعوته للتجديد وإلى مقارعته أعداء الإسلام وكأنه الحسام الصارم على رؤوسهم ، لنسمعه يقول[2] :

---

(١) الديوان ص٧٣.
(٢) أنظر نفسه ص١٢٠.

وعالم أهل سنةٍ مصطفانا　　مجددُ عصره الفرد الفريـد
له أيدٍ بها منحُ الأيـادي　　وردٌّ رديً لصولتها عقيـد
وأسفار بها إسفار صُبحٍ　　متى يطلُع يعُدْ عيد سعيد
حسام حاسم الطغوى بعمدٍ　　بلا غمدٍ له حدّ حديـد
وعزّ رضا نقيٍ هاشمـيٍ　　حماه فكيف يوهنه لـدود

وقد يتسأل البعض عن هذه المباشرة في الحديث عن النفس والتي قد لا تليق بامام وعالم مثل شاعرنا أحمد رضا خان ،ولكن الأستاذ حازم محقق الديوان قد التفت إلى ذلك ورد على الذين شككوا في أن تكون هذه القصيدة له[١]، وملخصه ان الاسلوب هو ذات الاسلوب الشعري المعروف لشاعرنا وانه قد اختار اسماً تاريخياً لهذه القصيدة على طريقته المعروفة وأسلوبه المتبع في أغلب مصنفاته ، ثم أنه برر صدور ذلك الفخر من الشاعر نفسه بانه اعتراف من الشاعر بالنعمة التي أغدقها الله عليه ويسرها له دون تكبر أو تعالٍ ، وان للشاعر أمثلة مشابهة في مواضع أخرى من الديوان[٢]، وأرى ان مثل هذا الفخر قليل بحقه ، فهو في مجال الرد والصولة والتحدي لاعدائه وأعداء الإسلام فلابد أن يشيد بمكارمه وفضائله ، وأن يعدو مناقب جماعته ومواقفهم الصلبة تجاه المارقين والخارجين.

وفي مكان آخر من القصيدة نفسها لاينسى الشاعر أن يذكر ولده محمد حامد رضا خان[٣] الذي لا يقل عن أولئك الذين تفاخر بهم من العلماء بما يمتلكه من علم وورع واسهام في التصنيف والتأليف ، يقول :

وفي دوح العلى حامد رضا من　　غراس جدوده الغصن الجديد[١].

---

(١) أنظر نفسه ص١١٠-١١١.

(٢) نفسه.

(٣) هو الإبن الأكبر لحضرة الشاعر والعالم أحمد رضا خان.

وقد كان عالماً جليلاً في جماعة أهل السنة والجماعة وله مؤلفات ونشاطات دعوية حتى عدّ في وقته حجة الإسلام ، فذكره والده فيمن ذكر من العلماء .. وأشار إلى انه غرس آباء وجدود صالحين أتقياء شبّ في أحضانهم وتربى على أفكارهم ومبادئهم وتغذي على قيمهم ومثلهم ، لكنه يحمل روح التجديد والتجدد فكما ان الغصن يحمل كلّ مواصفات وخصائص الشجرة التي ينتمي اليها ، فهو يحمل أيضاً سمة التطور والتجدد وخاصية الاستمرار والمواكبة مثل آبائه .

وللشاعر البريلوي مقطوعة في جدّه الإمام الشيخ محمد رضا علي خان وهي في الفخر والتفاخر بجدّه هذا الذي كان عالماً فريداً أو علماً لا يداني ثم انه حجة الأولين من الاجداد والغابرين من العلماء فهو نور الهداية وهو النجم الساطع الذي يزين الآفاق يقول شاعرنا :

جدّي كـــان عالماً   **لم ير مثله النظر**[٢]

بـهجةُ جُلّ من مضى   **حجةُ كلّ من غـبـر**

ثم بعد هذين البيتين يأتي بأبيات هي تصوير لحال جده وسمو مقامه وعلى عادته يأتي بتاريخ ولادة الجد وتعليمه ورحيله وهذا الأسلوب معروف عند شاعرنا وكان مولعاً به ومعجباً بقدرته على التاريخ الشعري للاحداث والمناسبات التي يعتز بها :

تعلم عام اذ ولــــد   **سيدنا الرضا الأبرّ**

قال رأيتُ أنجمـــاً   **قلت نظرت قال ذَر**

قلت فكيف نهتدي   **قال أضاءنا القمـر**

فجملة (أضاءنا القمر) تاريخ ولادته ١٢٢٤هـ

---

(١) الديوان ص /١٢١.

(٢) الديوان ص١٨٣.

قلت ختام درسه قال أَخَار الدُّرر

فيكون بحساب الجمل عام ١٢٤٧هـ هو تاريخ درسه وتعليمه

قلت تعلم نقلـــه قال محجل أغرّ[1].

وبه نعلم أن عام رحيل جده يكون عام ١٢٨٢هـ ، وهذه التواريخ لا تعنينا في هذا المقام وانما جئنا بها لأنها تشير إلى مفاخر جده وعلو مكانته في زمنه ، ولانها تعزز فنّ الفخر الذي نحن بصدده ، وتعطينا أبعاده لدى شاعرنا القادري.

ووجدت قطعة للشاعر من بيتين في الفخر بوالده محمد نقـي علـي خـان القادري وهما غير موجودين في الديوان ، وقد أرجعهما مؤلف كتاب (الشيخ أحمـد رضا خان شاعراً عربياً)[2] إلى كتاب من مؤلفات الشاعر نفسه عنوانـه (الـزلال الأنقى من بحر سبقه الأتقى)[3]. والبيتان هما :

فوالله لم يبلغ ثنائي كماله ولكن عجزي خير مدح لمالـــه

فذا البحر لولا انّ للبحر ساحلاً وذا البدر لولا البدر يخشى مآله

فمهما عبر الشاعر عن مشاعره وعواطفه وثنائه تجاه والده فلن يعطيه حقه ولن يفي بماله عليه .. فهو عاجز عن الايفاء والتعبير عما يكنه فؤاده مـن حـب وتقدير لوالده ومهما شبهه وبالغ في تشبيهه فانه يظل مقصـراً دون الغايـة التـي يرجوها .. فاذا وصفه بالبحر لجوده وغزارة معارفه وعلومه وما يضمه من أسرار وعوالم فان البحر محدود وله سواحل ونهايات ، وإذا قال عنه انه البـدر بسـموه وعلوه وجماله وضوئه الدافئ فان ذلك لا يغطي أبعاد الممـدوح ولا يصـل إلـى نهاياته.. لان القمر هو الآخر معرض للأفول ولغياب ضوئه وزوال لمعانه ولكـن

---

(1) أنظر نفسه .

(2) كتاب الازهري ص٢٩٨.

(3) أنظر نفسه هامش رقم ٢٢.

والده بحر لا ساحل له وبدر لم يألف النقص[١]. ونحن مع رأي السيد ممتاز الأزهري في أن مدح شاعرنا لوالده لا يعد مدحاً شخصياً لكونه والده نسباً ، وانما كان يثنى عليه لعلمه وصلاحه وأفضاله التي لولاها لما وصل شاعرنا إلى ما وصل اليه .. فبفضل توجيهاته الدينية ورعايته له وما زرعه في نفسه من قيم إسلامية ومثل عالية كانت محصلة ذلك أن كون فيه انساناً عالماً له مكانة مرموقة بين زملائه وأقرانه ومعاصريه[٢]، فهذان البيتان فيهما المدح كما فيهما الفخر والاعتزاز والتباهي بمكانة والده وسعة علومه واتساع آفاقه التي لا تحدها حدود ولا ينالها نائل. وقد جعلهما الباحث ممتاز الازهري ضمن أشعار المديح ، ولكننا فضلنا ادراجهما ضمن فن الفخر لان الانسان لا يمدح نفسه أو والده وانما تقول عنه يتفاخر بنفسه ووالده وأجداده.

---

(١) أنظر نفسه ص٢٩٨.

(٢) نفسه.

الهجاء :

فن الهجاء من الفنون القديمة التي عرفها الشعر العربي منذ عصر ما قبل الإسلام أيضاً.. **وهو نقيض المدح والفخر..** لأن الشاعر يكرس جهده في اظهار مساوئ الهجو والتشنيع به أو التقليل من قيمته ومكانته بين الآخرين ونشر مثالبه ومساوئه .. وقد يفتعلها ويؤلفها من بنات أفكاره دون أن يكون لها رصيد من الواقع.. وقد يأتي بتشبيهات وصور مضحكة أو (كاريكاتيريه) وهدفه من ذلك فضح مثالب المهجو والكشف عن سلبياته بصيغة استفزاز أو اثاره .. وللشاعر الشيخ أحمد رضا خان البريلوي أبيات كثيرة ومقطعات عديدة في هذا الغرض .. ومن استقراء تلك النصوص نلاحظ أن هجاءه يصطبغ بصبغة عقائدية بالدرجة الأولى ، وقد تكون ذات صبغة سياسية بالدرجة الثانية وذلك لانه كان يحب لله .. ويكره لله.. فالمهجوون في شعره هم ليسوا أعداءه الشخصيين أو أنداده الذين يقارعهم من أجل أهداف دنيوية أو مادية وانما كان جميعهم من مخالفيه العقائديين .. الذين ناصبهم العداء أو قل ناصبوه الخصام بدوافع عقدية فكرية مبدئية .. وبما ان أهل السنة والجماعة هم مجموعة من المسلمين الذين رسموا لهم طريقاً وفق الشريعة السمحة ووفق مبادئ الدين الحنيف يجمعهم منهج واحد من التربية الإسلامية ومن الهداية والإيمان .. فهم بذلك يمثلون حزباً إسلامياً أطلق عليه شاعرنا في إحدى قصائده اسم (حزب الله) وان حزب الله هم الفائزون .. وبالمقابل فقد كانت آنذاك في شبه القارة الهندية مجموعات إسلامية أخرى ومنها (جمعية ندوة العلماء) تمثل تيارات وتوجهات حزبية وسياسية تتمسح باعتاب الإسلام وترتدي لباسه وتتظاهر بشعائره وطقوسه ، وهي في الحقيقة غير ذلك ، وأهدافها مكاسب مادية أو مواقع رسمية ، فهي تسعى إلى الدنيا بخطى واسعة وسريعة لا تهمها الوسيلة ولا الطريقة التي تعتمدها .. وبذلك ظهرت عليهم سمات الانحراف عن جوهر الإسلام ولب عقيدته الغراء .. والابتعاد عن قيمه ومثله العليا فما كان من علماء أهل السنة والجماعة الا

أن يقفوا في وجوههم مقارعين ومناصبين وكاشفين زيفهم وفاضحين وسائلهم اللادينية .. بل اللاأخلاقية .. ولذا فاننا نقرر مقتنعين بان الهجاء في ديوان شاعرنا لم يكن كالهجاء المعروف الذي يقع بين شخصين بدوافع ذاتية أو ما يشبه ذلك ، ولكنه هجاء عقائدي سياسي .. دوافعه وغاياته الإسلام والدين الحنيف ليس غير ، ولذا فان بعض أهاجيه تأخذ صيغة الإصلاح والتنبية والإرشاد وقد أخذ أحياناً صيغة الترغيب والترهيب لان المهجوين مسلمون فهو يلفت نظرهم ويستفز مشاعرهم الدينية مذكراً إياهم بما جاء في الكتاب الحكيم من عقاب وثواب ، ومن هنا فان الهجاء ليس دائماً إثارة الصفات السيئة والمثالب القبيحة وانما قد يكون للهجاء جوانب ايجابية حينما يتسم بالسمة الاصلاحية وعندما ((يصدر عن نفوس تحمل عواطف نبيلة)) [١] وفي المعنى ذاته يقول الدكتور إبراهيم سلامة ((ان الهجاء اذا صدر عن عاطفة صادقة وعبر عما يحسه الشاعر من صراع نفسي وألم ذاتي لا يمكن عده قبيحاً أو رديئاً أو عملاً شريراً)) [٢]، وهذا المنهج في الهجاء سنجده مجسماً وواضحاً في شعر الشيخ أحمد رضا خان ، فقد كان هجاؤه ينصبّ على أولئك الذين ((خرجوا عن الدين وزاغوا وضلوا وأضلوا فهم أولى بان يعرض لهم هاجياً محذراً عقاب الله وعذابه ..... ولم يكن اقدامه على نظم الهجاء الا دفاعاً عن الشريعة الإسلامية الغراء ، وبالتالي مقاومة الفرق المخالفة لاجماع أهل السنة والجماعة [٣]))، ولكن في كل الحالات لم يندفع إلى الهجاء بدوافع شخصية وانما كانت معاركه من أجل والاصلاح وتقويم الاعوجاج في الفكر وتوضيح مسالك الشريعة الغراء.

---

(١) الازهري : ص٤١١.

(٢) تيارات أدبية ص١٢ ، طبعة مطبعة أحمد فحيمر ١٩٥٢م

(٣) كتاب الازهري : ص٤١٧

من قصائده المطولات داليته التي وجهها إلى المنحرفين الضالين من (جمعية علماء الندوة) التي مطلعها :

هي الدنيا تُبيد ولا تفيد　　　فأفٍ لمن يُريد ومن يرود[١]

فقد بدأها بحديث صوفي ونَفَسٍ زهدي وباسلوب رقيق دافئ متـــأملاً حـــال الدنيا وحال الناس فيها ، بين طامع ومستزيد مع علمهم جميعاً انها فانية وان نهاياتها مؤلمة وعاقبتها قاسية وسيئة لأولئك الذين نسوا الآخرة وغرتهم أيامهم فعاشوا بهـــا ولها يقول في مقدمتها بعد المطلع :

نفوس الجهل تائقة إليهـــــا

فملتمس وآخر مستزيد

ولم أر مثل طالبها غبيـــــــاً

ولا كبشاً لمذبحه أقود

وذا المسكين يعدو نحو موته

بأرجله ويحقدُ من يُحيد

فالعجب كل العجب من غباء أهل الدنيا وغفلتهم .. فهي تدعوهم إلى الهلاك وإلى الردى وهم يزدادون تشبثاً وتمسكاً بها. ثم يأخذ بعد ذلك بهجاء مـــرٍ لاولئـــك المبتعدين عن جادة الحق والهدى فيشير إلى عقائدهم التي هي أقرب إلـــى عقائـــد المرتدين عن الدين وانهم يدعون الناس إلى الهلاك والثبور ، والإسلام يدعو إلـــى النجاة والفوز العظيم : لنسمعه يبدأ بهجائهم بعد ذلك التمهيد الصوفي الفلسفي[٢].

---

(١) الديوان ص١١٦.

(٢) نفسه

ألم تر أن ندوة أهل كيدٍ ... دعت لتكيد فاتّبعَ المكيدُ

دعت لرديً كمرتدٍ مريدٍ ... ومن تدعوه مُرتاد مريـــــد

دعت جهراً علموا للهلاك ... فلبي الهالكون ولم يحيدوا

ثم يسخر منهم ويرسم لهم صورة مضحكة ..

تسخرهم فتسخر من لحاهـــم ... كما بالتيس تفتعل الــقرود

وتركب بعضهم وتقود بعضاً ... فكلهــــم قُعود أو قَــوُود

ومن سخرية القدر أن يعتلى هذه الجمعية أناس مجرمون فسقة .. وأن تقوم على أركان فاسدة وأوتاد جاهلة:

فويسقة غدت أوتاد علم

وإضرام البيوت لها عريدُ

فما يكون لمثل هذه الدار من قوة وثبات ولمصيره من الهلاك والتردي:

فلم يبق الخِباءُ ولا العمـــود ... فجرّتْ حسب ديدنها الفتيلة

وما يكون مصيرها بعد الموت الا التلف والتفسخ والتـــدود

ألا دوّدْتِ نــدوة سَتَفْسُدينا ... فانّ أولئك الــــقراءَ دودُ

ضمْدتِ من المذاهب كــلّ ضدٍ ... أَغمِدُك للسيوف معاً مُعيــدُ[1]

فهذه الجمعية ليست الا مجموعة مذاهب وطوائف لا تجمعها رابطة واحـــدة ولا توحدها عقيدة .. بل انها تضم الاضداد .. وتحوى كل شريد وطريد .. ولكـــن هدفها الذي يجمع ذلك النقيض هو طمعها بالمنصب وهدفها الوصول إلـــى الملـــك والسلطة :

---

(١) معيد : مطيق لهذا الأمر

أردت لكي يزينك تاجُ ملكٍ   فصحت الا لتأتلفِ الجنود

ولكن إذا كان الرابط الوحيد الذي يجمع قلوب أولئك الأخوة الاعداء هو طمع الدنيا وحب السلطة والجاه فليس غير الفشل والخذلان لهما .. ولن تتحقق أحلامهم مهما بذلوا من جهد ومهما عملوا من كدح ومعاناة :

فلا تاج ولا باج ولكن   بماء الوجه أوساخ نُقُود

فوصمة العار والهزيمة تقطر جباههم وتوسخ وجوههم وهكذا يستمر الشاعر بإيراد المزيد من الهجاء المرّ على أولئك المرتدين المارقين .. ويتحدث عن بنيات النُدية (وهو تصغير للندوة) وعن خريداتها الجائعات العاريات الضائعات فكأنه يدعوهم إلى الالتفات إلى هؤلاء النساء ومعالجة حاجتهن وسدّ متطلباتهن الأساسية من الغذاء واللباس وغيرها .. انكم تدعون الكفاف والعفة والقناعة ولكنكم في الحقيقة غير ذلك .. لانكم طلبتم الدنيا مضحين بدينكم وايمانكم من أجل ذلك .. ففي الأبيات الآتية يضربهم بصميم العقيدة والفكر .. ويوجه اليهم نقداً لاذعاً يبين فيه انصرافهم عن الإسلام وتجنبهم كل ما جاء به القرآن الكريم ونبيه محمد ﷺ ، فماذا بعد ذلك!! لقد جردهم من كل خاصية دينية إسلامية .

تركتم دينكم لحصول دنيا

فرام ولم تجئ فبدا البُيود

ويشبههم بالبغي من النساء اللاتي يحببن من يذلهن ويكرهن من يريدهن ويهواهن :

وذا شأن البغيّ تموت شوقاً

لطاردها وتطرد من يريد

خسرتم حظكم ديناً ودنيا

لعمرُ الله ذا الخسرُ الجريد [١]

فلا قلب له حال رشيـــــــد

ولا جلب به مال رشيد

وهب أن صرتُمُ قارون قرنٍ

فهل للمال أم لكم خلود ؟!

ثم يتحدث بعد ذلك عن جنة بلقيس في سبأ وكيف تحولت بامر الله تعالى إلى أُكـلٍ خمطٍ وأَثْلٍ وشيء من سدْرٍ قليل جزاء من الله بما كفروا وأعرضوا[٢]، ويذكرهم بان تلك الجنات لم تدم بل غدت يباباً وقفراً ، ويتوقع أن يحل بالندوة مثل ما حلّ بتلـك الجنان بل أكثر من ذلك :

فندوة أُشْرِكم عما قليل

تعيد كمثل تلك بل تزيد

فلا يبقى لها سدر قليـل

ولا أَثل ولا نخل جريـــــــد

وليس يُرى لها آثارُ بئـرٍ

معطّلةٍ ولا قصر مشيـــــــدُ

---

(١) الجريد : الخالص المتجرد من غيره أو التام المجرد من النقص / هـامش الـديوان صـفحة ١٢٨

(٢) قال الله تعالى في سورة سبأ الآيات ١٥ـ١٧ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِـينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَـيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِـنْ سِـدْرٍ قَلِيـلٍ* ذَلِـكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ. "

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى مدح جماعته من أهل السنة والجماعة فيصفهم بأنهم حزب الله ، وهل لحزب الله الا الغلبة والنصر ، وان حزب الندوة هم حزب الشيطان وهم الخاسرون.

أولاء الحزبُ حزب الله حقاً وسيدُ حزب الاعداء المريد

وبعد أبيات كثيرة يعود مرة ثانية في البيت رقم (١٢٠) وما بعده من القصيدة نفسها إلى هجاء جمعية ندوة العلماء :

أندوة أيْ قلوص القومِ قومي

لخيرِ فحولةٍ يجد الجديد [١]

ويذكر أن محاورات ومناقشات وقعت بين الجماعتين فما كان للندوة الا الصمت والخذلان والارتجاف والافحام أمام علماء أهل السنة والجماعة .. فغدوا وكأنهم العذاري الخجلاوات اللاتي لا يطقن نطقاً ولا ينبسنَ ببنت شفة ، بل هم أكثر من ذلك :

رجوا شفةً تجود لهم ببنتٍ

لرباتِ الحجال هوىً عتيد

كبير النادِ حار فما أحارا

وأخرد[٢] فهو جارية خرود

بل ان الخردَ قد تُلفى لحاجٍ [٣]

لها في خِدرها صوت خريد

---

(١) الديوان ص١٢٣.

(٢) أخرد : يقال أخرد الرجل أي سكت ؛ الخارد الساكت من حياء لا من ذل ، والمخرد : الساكت من ذل لا من حياء : شارح الديوان ص١٣٥، نقلاً عن التاج.

(٣) حاج : جمع حاجة

ثم يشكر الله تعالى على تمكنهم من النصر والغلبة على جمعية الندوة

بحمد الله أهلكنا الخزايا

فهاهم الاءِ دورُهم لحود

فتلك بيوت ندوة خاويات

الا بَعدت كما بَعدت ثمود

ويصفهم بصفات قبيحة وقاسية قائلاً :

عتوا بتجبرٍ وعتوا بجبرٍ — كأنهم قرود أو فهـــودُ

ذباب في ثيابٍ بل ضِباب — تبيض وبيضها الشرُّ المريدُ

كبيرهم لمهواهم كبير — فهم غنم وسيدهنّ سيـــد [1]

ويستمر في حملته الشعواء وهجائه اللاذع :

لحا الله الذين حلا الحـــرام — بأعينهم وحلّ فريد زيـــد

نهيق الحمر في الاذان عـود — ودَفرُ الخمر في الانافِ عـــود

بغوا وجبوا من اللائي بغينا — وبعن هناتهنّ لمن يزيـــد

جبوا فدعوا ذويهم للفساد — دعوا دين العبودة كي تسودوا

فهؤلاء في نظر شاعرنا فاسدون وزناة وكفــرة.. بــل هــم دعــاة الكفــر والانحراف..

كان الشاعر في هذه الدالية واضحاً وصريحاً في هجومــه وتحديــد هويــة أعدائه ، لان القصيدة ألقيت أصلاً في محفل كبير عقد لهذا الغرض في مدينة بتنــه الهندية[2].

---

(1) السيد : الذئب : ويقال الحسن من المعز .. وقيل التيس : شرح الديوان ص١٣٦

(2) أنظر الديوان ص١١٥

وفي قصيدتيه الطويلتين اللتين وردتا في أول الديوان النونية والدالية حمل شاعرنا حملة شعواء شديدة على أعدائه المناوئين من الذين يعتبرهم هو في رأيه أنهم مارقون خارجون وأنهم يتسترون بلباس الدين الإسلامي وهدفهم وغرضهم غير ذلك فقصدهم الدنيا ومكاسبها وأطماعها وهم بعيدون كل البعد عما جاء به القرآن الكريم .. فهو بعد أن يشيد بعلماء السنة والجماعة الذين نشروا القيم والمعالي في الافاق .. يلتفت قائلاً :

تلك العلى تلك المكارم حقةً

لاما ادعته عشيرة الأدهان[1]

غُروا وغَروا غيرهم بلسانهم

هذا اللسان فاين من برهان ؟

أعمالهم أقوالهم أشغالهم

كلّ على بعدٍ من القرآن

الرفض في جلواتهم والشرك في

خلواتهم والكفر في الاجنان

خذلوا الشريعة ثم هم سبلُ الهدى

وبهم قيام الدين في الازمان

فهم مشركون كافرون .. قد خذلوا الدين والشريعة ولكنهم يدعون ويزعمون بانهم أنصار الإسلام ودعاة الحق والهدي.

وذلك هو مجرد ظن وليس كلّ ظن مصيب وحقّ :

هذاك ظنهم الذي أرداهمُ **والظن لا يغنى من الاتقان**

ولذلك فانت تراهم يتصرفون تصرف المنافقين والكفار :

---

(١) الديوان ص٨١ ولفظة الادهان : تعني النفاق

يتلجلجون بقول أشهدُ أن كذا

والقلب بين الكفر والكفران [١]

ظلوا وباتوا يذكرون كبيرهم

مطرين لعّابين بالايمـــــان

وإذا ذكرت نبينا فاذا هـــمُ

جعلوا أصابعهم وكـــالأذان

ما عنـــــدهم شوب[٢] ولا روب ولا

خير ولا أثر مــــــن الايمان

وفي البيت ما قبل الأخير اشارة إلى الآية القرآنية الكريمة ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (سورة البقرة آية ١٩) ، فهؤلاء بعيدون كل البعد عن الايمان والتقوى وعن الصلاح والإسلام ((وقد وصفهم شاعرنا بصفة ملازمة لهؤلاء المعاندين وهي وضع الأصابع في الأذان ، وهذه الصفة سواء أكانت حقيقية أو كناية ، تعني البعد التام عن الهدى ، فلاشك ان شاعرنا يعيب على هؤلاء الذين ينصح لهم ويدعوهم إلى الجادة ، ولكنهم لا يستجيبون ويتمسكون بغيهم وآرائهم التي تخالف أهل السنة ، فهم قوم معاندون معارضون))[٣] وهذا الموقف من المهجوين يزيد من ضيق الشاعر وحزنه ويثير في ذاته أشجاناً وآلاماً.

---

(١) الديوان ص٧٧

(٢) شوب : النفي المطلق وتعني أيضاً الخلط ، والشائبة واحدة الشوائب : هي الاقذار والأدناس، الروب ، الرائب : اللبن الخائر وقوم روبى أي مختلطون من شدة السير أو بسبب شرب الرائب

(٣) أنظر : كتاب الازهري : ص٤٣٧

وفي داليته المطولة الثانية لم أجد جديداً عما جاء سابقاً في أهاجيه لأهل الملل والنحل البعيدة عن جوهر الإسلام وحقيقته والتي تتخذ من الدين غطاء لتحقيق مآربها وأطماعها وأعتقد انه يعني بذلك (جمعية علماء الندوة) في جميع أهاجيه التي لم يصرح فيها باسم المهجو.

لنسمعه في الدالية يقول بعد ذكر أفضال ممدوحه (فضل الرسول) ونور ايمانه وعقيدته التي عمت الافاق وبلغت المرام الا أولئك الذين ضلوا عن سواء السبيل وتجاوزوا حدود الله تعالى[١]:

بلغ المرام بنورهـا   من شاء الا المعتدي
لرأى السبيل كما نرى   لـو كان لم يتمرد
لكـن مختار العمى   كثمود كارهُ إثمد

فهؤلاء قوم كارهون للحق وكارهون لمن ينصحهم وينير لهم الطريق ، فضلوا العمى والضلالة وتمردوا على من يريد لهم الخير والفلاح ، ولن يكون لهم جزاء غير الويل والثبور يوم القيامة ويوم الحساب العظيم أمام الخالق الجبار.

ويلاً له بل ليس ذا   ويلاً ولكن في الغد [٢]

وهكذا يمكن أن تتكامل صورة الاهاجي عند الشاعر بمطولاته الثلاث ... وهي لا تبعد أن تكون هجاء عقائدياً وسياسياً في الوقت نفسه..

وسوف يتأكد لنا ذلك عندما ندرس قصائده ومقطعاته الأخرى التي قالها في أشخاص معينين..

للشاعر مجموعة مقطوعات في هجاء بعض الشخصيات الإسلامية من ذوي التوجهات غير السليمة والتي تنتمي إلى مجموعات وأحزاب ليست من أهل السنة

---

(١) الديوان ص٦٣.
(٢) نفسه ٦٤

والجماعة.. والتي اعتبرها شاعرنا خارجة أو معادية .. لانها ابتعدت عن أهل العقيدة الإسلامية وتدافعت لغاية مادية دنيوية وتواطأت مع غير المسلمين من الهندوس لاجل تحقيق أهدافها في منصب سياسي أو مكسب مادي. وفي بعض تلك المقطوعات هجاء القائلين بامكان كذب الله ، تعالى الله عما يقولون [١]، أو في الرد على أهل المذاهب الفاسدة [٢]، وقد وجدنا قصيدة ومقطوعتين في هجاء العلامة عبد الباري فرنجي محلي الكهنوي . ولابد من التعريف بهذه الشخصية لاهميتها ولان شاعرنا كان يكاتبها من أجل اقناعها وارجاعها إلى حزبه بعد أن انضمت إلى الداعين إلى حركة ترك الموالاة .. والتي كان يطلق عليها عنوان (استخلاص الوطن عن الاستعمار البريطاني) .. فقد كان الشيخ عبد الباري الكهنوي ((عالماً متبحراً بل رئيس علماء فرنجي محل في عصره ، وكان من أسرة عظيمة علمية .. وكانت بينهما ـ أي بين الشاعر وهذه الشخصية ـ روابط المحبة والمؤانسة وكان القائد السياسي الكبير محمد على جوهر وأخوه شوكت من مريديه [٣] ((ولكن الكهنوي مال أخيراً إلى تأييد رئيس الهندوس (غاندي في حركته الوطنية لتحرير الهند من الانكليز واستخلاصها من براثنهم .. وأيده بما طرحه من ضرورة توحيد القوى الوطنية وتجميع طاقاتها عن طريق قيام اتحاد بين المسلمين والهندوس .. وأثناء هذا العمل صدرت من الكهنوي عبارات انتقد فيها الامام الاكبر المجدد أحمد رضا خان ، وثبت عليه من المسائل الفقهية مائة وواحدة قال عن بعضها انها كفرية وبعضها الآخر ضلالة .. وطلب منه التوبة والرجوع عنها [٤].

---

(١) أنظر : الديوان ص١٤٧ ، ١٩٢ ، ٢٠٤

(٢) أنظر : نفسه ص٢١٥

(٣) نفسه ص١٨٦

(٤) نفسه١٨٦

ولكن الحال لم يستمر كذلك اذ اكتشف الكهنوي الحقيقة وبانت له سقطاتها ((فرجع عن تلك الأقوال ونشر توبته في الجريدة اليومية في زمن فضيلة الامام الاكبر المجدد .. وكرر تلك الرجعة ثانية في زمن ابن شاعرنا الشيخ حجة الإسلام حامد رضا خان[1] ((ومن متابعة الاحداث نرجح أن عبد الباري لم يعلن رجعته عن اقواله وتوبته عما أثاره من مسائل ضدّ الشيخ أحمد رضا خان واعلانه صحة كل ما ذكره من آراء وأقوال وفتاوي الا بعد وفاة الشيخ أحمد رضا خان[2] .. ويبدو من تفاصيل ما جرى بين الشخصيتين الكبيرتين أنهما كانا يتراسلان ويتناقشان عبر رسائل مدونة متواصلة بينهما لاسيما فيما يخص الأقوال المائة وواحد التي أوجدت الجفوة بينهما في بادئ الأمر..

ويشير محقق الديوان أن رسائل شاعرنا إلى الشيخ عبد الباري كانت تتسم باسلوب الناصح الواعظ ولم يقم بهجاء الشيخ عبد الباري فرنجي محلي بل كان يخاطبه بكل اجلال واحترام[3].

ونظرةً في نظمه نلمس غلظةً وقسوةً في المخاطبة متهماً اياه بالنفور عن الدين وبالكفر[4]:

أعصبةٌ .. النوافر	**لا تكفري بالغافر**
إخشيْ جزاء من كفر	**اللهُ مجزي الكافر**
أتائب وخائب	**أم خائب كالظافر**

(١) نفسه ١٨٦

(٢) أنظر نفسه ١٨٩-١٩٠.

(٣) الديوان ص١٨٥.

(٤) نفسه ٢٠٠.

ويستمر فيورد أبياتاً تثنى على جماعته أهل السنة والجماعة وتشيد بما تتمتع به من قوة وشجاعة .. ونجده يقسو على مهجوه أكثر في احدى مقطوعاته التي ضمنتها رسالة نثرية وجهها إليه لنسمعه يقول مخاطباً اياه :

كفرتَ وقد نفرتَ فبالهدى صُنْ
فؤادك من لظى أو في لظى كنْ [١]

وانّ الله موهن كيد كافــــر
ألا فارجع الإسلامَ أوهُــــنْ

فلست الآن الا كيدَ كاندهــي [٢]
يكيد بك المريدُ أو الذي جُـنْ

ففي هذه القطعة يعلن الشاعر تكفيره ، ولكنه في الوقت نفسه ، يدعوه إلى العــودة إلى الايمان وإلى تنوير فؤاده بنور الهدى ويحذره من لظى النار وعذاب الجحـيم ، ويقرر أن الله تعالى يوهن كيد الكفار ، ويضعف قواهم ويثبط أعمالهم ويخيره بـين الإسلام القوي المتين بعون الله وبين أن يستمر في غيه وكفره وبالتالي لن يكتب له الا الهوان والضعة والوهن :

وللشاعر بيتان في الرد ((على التهانوي الذي كان قد أنكر بعض عقائد أهل السنة والجماعة التي أجمعت عليها الأمة منذ عهدها الأول[٣]))، وتحس فيهما الغيض والانزعاج والغضب الشديد على هذا المنحرف والخارج عـن الـدين الحنيـف .. ويلعنه ويلعن ماستلد أفكاره من سوء ومن جراءٍ .. ويشبهه بالكلب العقور :

---

(١) نفسه ٢٠٠

(٢) كاندهي : غاندي وهو زعيم الهندوس ومحرر الهند من الأنكليز

(٣) الديوان ص١٩٩

أضرّ حبلى مـــــن نتائج ردّةٍ وأشرُّ فعلـــى لعبة الصبيان (١)

انـهيْ جرائك في الحسان عن العوا أنتِ انبحي يا كلبة الشيطان

ومما تقدم يتأكد لدينا أن هجاءه كله هو هجاء عقائدي حملـه علـى الـذين خرجوا – في رأيه – عن الإسلام وعن الدين الحنيف .. فنادوا بأفكار ملحدة كافرة بعيدة عن حقيقة الشريعة الإسلامية وجوهرها، وهو هجاء سياسي لان المعركـة ، كانت آنذاك بين مجموعات وأحزاب إسلامية تتخذ موقفها السياسي مع هذه الجبهـة أو تلك ، كما رأينا ذلك مع الكهنوي الذي أصابه شرر الهجاء المرّ من شاعرنا لانه أيد زعيم الهندوس (غاندي) وانضم إلى حزبه في أملٍ بالمساهمة بموقـف وطنـي لتحرير الهند من المستعمرين الإنكليز.

(١) نفسه.

الرثاء :

هو بكاء الميت أو تأبينه وذكر محاسنه وفضائله والحديث بصيغة الماضي عما اتصف به من خصائص وسمات ممدوحة .. فهو قريب إلى المدح ولكنه موجه إلى المتوفى ، فابن رشيق ينبه إلى ذلك بقوله ((**ليس بين الرثاء والمدح فرق الا أن يخلط بالرثاء شيئاً يدل على ان المقصود به ميت**))[١]، وشعر الرثاء يعد من أصدق النظم وأكثره عاطفةً ورقة ، لانه يحمل انفعالات الشاعر وأحاسيسه وتأثره بالمصاب الاليم الذي حلّ به لاسيما إذا كان المتوفى من الاشخاص الذين تربطه واياهم رابطة الدم والقربى كالزوجة أو الابن أو الاخ .. أو لهم علاقة الصداقة الحميمة أو من الذين تقوم بينهم وشائج المحبة والتقارب الفكري والروحي ، وقد امتلأ ديوان العرب بالمراثي الحزينة المؤثرة التي تشد إليها القارئ أو السامع وتنقل اليه عبر كلماتها وأوزانها وقوافيها مشاعر الناظم ورهافة حسه وقوة ألمه وتأثره . والعواطف الإنسانية واحدة بين الأفراد والشعوب ، وقد تتفاوت جزئياً بحكم الوعي والثقافة والتربية والبيئة ، والرثاء في تاريخ الأدب العربي قديم يرجع إلى ما قبل الإسلام وقد عايش العصور الأدبية كلها .. ولكنه كان يتفاوت من النواحي الفنية والتعبيرية والاسلوبية من عصر إلى عصر ومن شاعر إلى آخر ، وهو على كل حال سيظل قائماً كأحد الفنون الشعرية مادام هناك انسان وما دامت هناك علاقات انسانية وروابط عائلية واجتماعية ، وفي نظرة إلى ديوان ((بساتين الغفران)) للشاعر الامام الشيخ أحمد رضا خان تطالعنا نصوصه بعدد من القصائد والمقطوعات في هذا الغرض ، وهو في رثائه يندفع بالاسباب نفسها التي كانت تحركه لقول المديح .. فقد كان يمتلك فيضاً من العواطف والمشاعر والاحاسيس

---

(١) العمدة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٤٧/٢ ط . المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٣٧٤هـ .

الانسانية التي يغذيها الايمان وحب الله ورسوله .. فأخوته العقائدية والدينية لا تقل في وشائجها وتلاحمها عن أخوته النسبية ، فالذين رثاهم هم بصورة عامة من علماء السنة والجماعة الذين كانت تتوثق بينهم أواصر من وحدة المذهب ووحدة الفكر ، وتجمعهم خيوط الايمان والتقوى والورع .. فقد كان شاعرنا ((**يرى أن رثاء العلماء الراحلين دَين في عنقه وحقٌ واجب لهم ، وهو يعتبر الرثاء وفاء بهؤلاء العلماء الاجلاء**))[١] فكانت مراثيه تتسم بفيض من العواطف الجياشة ومن الحسرة والالم لفراق واحد من رفاقه واخوانه ، لانه يشعر أن ركناً قوياً من أركان جماعته قد انهدم .. فمن سيعوضه ومن سيسد هذه الثغرة ويعالج هذا الثلم ؟؟

اما علمت عبيد الله ان ثلمتْ

وفاتك **الشرع لا تنسد ثلمتها** [٢]

وكأنه في هذا البيت ينظر إلى حديث المصطفى ﷺ *[ماقبض الله تعالى عالماً من هذه الأمة الا كان ثغرةً في الإسلام لا تنسد ثلمتها إلى يوم القيامة]* [٣]

وفي مراثيه تلين جوانحه ويهيم به الحزن واللوعة فيرق إلى درجة يكاد معها أن يذرف دمعاً .. فتسلس حينذاك عباراته ويشف أسلوبه وتشرق ألفاظه واضحة دون ابهام ، بينة دون تعمية أو غموض .. تنتقل بخفة في جوّ روحاني استذكاري تأملي.. فالموت برهبته وغموضه يخيم على الاحياء المنتظرين .. فلابد للشاعر من أن يعرّج إلى هذه العوالم وأن يخترق تلك الافاق فينتقل من الحياة إلى الموت ومن الدنيا إلى الآخرة ومن غفلة الحياة إلى صحوة الموت وعالم الخلود .. فتنعكس كل

---

(١) الشيخ ممتاز الازهري ص٣٦٢

(٢) الديوان ١٦٥

(٣) رواه السنجري في الابانة عن أصول الديانة ، والموهبي في كتاب العلم عن ابن عمر " رضي الله عنهما " عن النبي ﷺ.. نقلاً عن الديوان ص١٦٧.

تلك الرؤى والخيالات والتأملات على شعره ، ليتسم بروح الحكمة والموعظة ويتصف بألفاظ الدعوة للفقيد بالعفو والغفران وأن يجعل الله جنان الخلد مثواه ومآبه، أو قد تتعمق لديه الافكار والتأملات فتوسم بطابع فلسفي .. وربما يجنح به الفكر إلى أجواء صوفية روحانية فتكتسب عباراته غموض الصوفية في تعابيرهم ومصطلحاتهم التي لا يدركها أو يفهم مغزاها وأبعادها الا أصحاب الطريقة ومن سلك دربهم وعاش في أجوائهم ومكابداتهم ، هذه السمات تنطبق على معظم قصائده الطويلة ، أما مقطعاته التي تتراوح بين الثلاثة أبيات والسبعة والتي يمكن أن نطلق عليها مصطلح (بطاقات تعزية) فهي في الغالب ومضات سريعة وانفعالات تقف عند الدعوة للفقيد والترحم عليه وتنتهي بتسجيل تاريخ الوفاة .. تلك الخاصة التي عرف بها شاعرنا وتميز بها عن زملائه ومعاصريه من الشعراء كما عرفت عنه سرعة بديهته في هذا الجانب.

يقول الشاعر الإمام أحمد رضا خان في إحدى مراثيه في تأبين الشيخ محمد عمر الحسيني الحنبلي القادري[١]، حيث بدأ القصيدة بالدعاء للفقيد ثم بعد ذلك انتقل إلى تعداد مفاخرة ومكارمه وأنه يجمع المآثر من أطرافها فهو حسيني يعود إلى المصطفى ﷺ نسباً وهذا يكفي فخراً للمتوفى وهو سيد متين بما ناله من بركة الغوث الأكبر ، ويعني به الشيخ عبد القادر الكيلاني يقول :

---

(١) (هو السيد محمد عمر الحسيني نسباً والحنبلي مذهباً والقادري طريقة والحيدر آبادي موطناً المتوفى سنة ١٢٨٦هـ . نزح جده الأعلى محيي الدين الحسيني من بغداد قاصداً الهند واستقر في إمارة حيدر آباد .. وكان السيد محمد عمر مشغوفاً بالوعظ والتدريس وتعليم تجويد القرآن كما كان موهوباً في نظم الشعر توفي عام ١٣٣٠هـ ١٩١١م .. بعد حياة حافلة بالخدمات الدينية) أنظر: الشيخ ممتاز الأزهري ، هامش صفحة ٣٧٨.

عبد بغوثِ البرايا سيد سنـــد   بالغوث مغترف بالغيب مدرارُ[١].

باللطف معتصم بالرأف مبتسم   بالعُرف مُتسم بالعَرف معطار

فهذا البيت على ما فيه من تقسيم جميل ومن موسيقى داخلية يذكرنا ببيـــت الخنساء شاعرة الرثاء حين قالت في رثاء أخيها صخر :

حمّال ألوية هبّاط أودية

شهاد أندية للجيش جرار[٢].

أقول ان هذا البيت يرسم صورة رائعة وجميلة للغوث الأكبر الـــذي شـــمل ببركاته وبأسراره الفقيد .. وأنعم عليه ببعض من خصائصه وسماته التي اختصّ بها من اللطف والخير والدماثة ومن المعروف والرأفة باخوانه ومريديه ، وبما يتعطـــر به من أريج ونفحات ايمانية صادقة :

سرّ أسرّ له في السرّ أسرار   برّ أبرّ له في البِرّ أبرار

فالغوث يمتلك الكثير من الأسرار والكشوفات التي تتجلى له ، فلن يخلو أن ينال المرثى شيئاً من تلكم الخيرات والأسرار .. والمريد هـــو الامتـــداد المنطقـــي للشيخ.. ومرثينا لن يكون الا مريداً مخلصاً ورعاً صادقاً مع ربه .. ومع ذاته.

وأرى في هذا البيت شيئاً من تعابير وصور الصوفية :

ريم لآل هدىً حرب لأهل ردىً

بحر لسبيل ندىً حبر بل أحبار

---

(١) الديوان ص١٨١.

(٢) ديوان الخنساء ص٤٩ ، دار الأندلس ــ بيروت.

ومرة أخرى يجمل الشاعر قصيدته بهذا التقسيم الفني الرائع وتلك الموسيقى والتقفية الداخلية .. فالفقيد يستفيد في الشطر الأول ، من الآية الكريمة ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح آية ٢٩).

فالمرثي رحمة ورقة لأهل الصلاح والتقوى ولكنه حرب ضروس وقتال لا هوادة فيه لأهل الفساد والانحراف.. وهو فوق ذلك بحر فياض بجوده وعطائه كما انه علم وعالم كبير بل أكثر من عالم فقد أفاض الله عليه بعلوم شتى ووهبه عقلاً وذكاءً نيرين.

ثم يستطرد الشاعر بعد ذلك فيذكر سمات المرثي وفضائله يجمع منها العديد في بيت شعري واحد :

علم وحلم وسلم في تقىً ونقىً

سيادة سود وفضل وايثار

هل بعد ذلك من خصلة ممدوحة ومن خاصية يتمناها الإنسان لنفسه لم يذكرها الشاعر؟. ان فقدان مثل هذا العالم خسارة كبيرة ، وبموته سينهد ركن كبير لن يعوض ولن يلتئم.

ثم يشير صراحة إلى سلوك الفقيد الطريقة القادرية ، التي بها ازداد مقدرة وقوة على أعدائه من ذوي البدع والادعاءات الكاذبة والبعيدة عن أصل الدين الحنيف وطريقه السليم.

بقدرة الله تمتْ قادريته فزادها القدرَ والمقدار أقدار.

وفي ختام أبياتها يصرح الشاعر باسمه ويشير في الشطر الثاني إلى تاريخ وفاة المرثي :

قال الرضا أسفاً في عام فرقته

محمد عمرُ الفاروق شطار

وبقراءة القصيدة وتتبع أبياتها وكيفية ترابطها ونمو أفكارها ومعايشة تجربتها نحس بمقدار حبّ الشاعر للمرثى وإكباره والثناء عليه .. لما كان يمتلكه من مواصفات حميدة ومن مفاخر كثيرة .. ولما كان بينهما من تواصل وتقارب ومودة ... فكان ثقل الرزية كبيراً عليه وكانت خسارة فادحة له وللمسلمين .. ونلمس أيضاً في المرثية الصدق وسلاسة العبارة ورقتها وهدوء التعبير ورزانة الأفكار واجتناب المبالغة أو الشطط في الخيال والابتعاد عن واقع الحال.. فالشعراء في حالات التأبين .. يكونون عادة أكثر عقلانية وأنضج تأملاً وأعمق فكراً .. لانهم يكونون قد امتصوا صدمة المصيبة واستوعبوا المفاجأة وصبرّوا أنفسهم بقضاء الله وقدره وان الموت حقّ لا مفر منه.

وفي مرثية أخرى للشاعر في رحيل الشيخ محمد عبيد الله[1] يخيم على القصيدة جوّ من الحزن والألم واللوعة منذ سطورها الأولى فيبدؤها بسوداوية قاسية حينما يقول:

أتَرَّحتْ سنةً غراء ضرّتُها

أم فرّحت بدعةً ضرّاءَ غِرّتُها[2].

ومعنى كلمة (أترحت) أحزنت .. فالحزن والسواد يتماثلان أمام عين الشاعر منذ اللحظة الأولى .. وهذه إشارة إلى مقدار ألمه على المصاب ومقدار الآسى الذي هجم عليه مرة واحدة ، فكان وقع النبأ عليه كبيراً وزاد من وجعه أنه باغته وفاجأه.. حتى كأن القيامة قد وقعت ونفخ في الناقور .. فيتساءل الشاعر مبهوراً

---

(١) لم نعثر له على ترجمة وقد أشار إلى مثل ذلك مؤلف كتاب الشيخ أحمد رضا خان شاعراً عربياً ص٣٦٦ ، وعلى كل حال فانه وكما يبدو من المرثيتين اللتين خصهما به انه كان أحد العلماء الذين تربطه بالشاعر رابطة قوية خيوطها من الإيمان والتقوى.

(٢) الديوان ص١٦٤ ، أترحت : أحزنت ، ضرتها : هي البدعة ، غرة : غفلة.

مندهشاً .. عما اعترى الكون من أحداث وما طرأ عليه من هموم حتى تحولت الفرحة والسعادة آسى وحزناً ، وكان عهدي بالدنيا في بلاد الهند مبتهجة وضاءة كأنها الغادة الحسناء تجلى وتجلو بجمالها وروعتها عيون الناظرين :

أترّحت سنةً غرّاء ضرّتها … أم فرّحت بدعةً ضرّاء غرتها

أم قامت الساعة الدهماء أم نفخت … قبل القيامة في الناقور نفختها

ماذا اعترى (بَنْبَئِ)[1] ماذا ترى طرءا؟ … تبدلت بالآسى والحزن فرحتُها

عهدي بها في ديار الهند غانية … تُجلى وتجلى فتجلو العين جلوتها

ثم يدرك سبب هذا الحدث الكوني وهذا المصاب الجلل الذي حلّ بالبلد .. انه فقدان عالمٍ كبير وإمامٍ لا يعوض :

نعم أحدَّت وما جُدّت فقد فقدت

بعلاً به كان جدوتها وجودتها

وينتقل مباشرة بعد البيت السابق إلى تاريخ وفاة المرثي. ويعود لاكمال صورة الكون وصورة الحياة من حوله :

يوم الكواكب والارجاءُ قاتمة

كأنما أغشيت بالليل ضحوتها

فالنهار تحول إلى ليل قاتم دامس حتى بانت منه النجوم والكواكب وغدت جميع أرجاء الدنيا سوداً وتلبس الضحى رداء الليل وهكذا تحولت الآفاق والأجواء كلها إلى حزن معتم كئيب .. فيتمنى الشاعر أن لو استبدل الموت بالفقيد عشرات الناس .

---

(١) بَنْبئ : يقصد بها مدينة بمباي أو ممباي — وهي في الأصل موم بائي أي السيدة الاله ، وكانت إلى فترة قصيرة تكتب وتلفظ (بمبئ) وبدلت إلى ممبئ.

ليت المنية جاءت لركن هــــدىً ... استبدلت منه جمعاً فيه منيتها

قد كان هيناً علينا أن نفادي عا ... لماً بسبعين أو مافيه أوبتهــا

ولكن ذلك أمر مستحيل فقدر الله واقــع لا محالـــة .. ولا رادّ لقضـــائه .. فالفجيعـــة بيومهـــا والمـــوت بســـاعته ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف آية ٣٤) ثم يعود الشاعر إلى نفسه وإلى الآخرين فيدرك أن أمنيته في فداء المرثى لا يمكن أن تتحقق أو تقع لان ذلك لو كان ممكناً لكان نبي الله محمد ﷺ هو أولى من الجميع بهذا الفداء بل لفدته وتسابقت إلى فدائه الألـــوف من البشر والجن والملائكة :

لكنها أمرُ حتمٍ لا مردّ لـــه ... ولا تُعقبُ اذ حانت قضيتهـــــا

الأنس والجن والأملاك كلهم ... كانوا فدا المصطفى لو ساغ فدينتها

وبعد هذا لن يجد الشاعر سوى الصبر ملجأً وسوى الله مرجعاً .. ولا حيلة للإنسان أمام هكذا مصاب إلا الصبر :

فالصبر مفزعناً والله مرجعنا ... ونعم عِدلا العُلى نعمت علاوتها

ويصور الشاعر الصبر كأنه أحد العدلين[1] اللذين يوضـــعان علـــى جنبـــي البعير وانه جعل العدل الثاني هـــو الرجـــوع إلـــى الله تعـــالى .. ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

---

(١) العدل : نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير ، والعلاوة ما يوضع على البعير بعد تمـــام حمله من سقاء وغيره . أنظر كتاب الازهري ص٣٧٣.

وجاء في هامش الديوان ان معنى البيت مقتبس من حديث أمير المـــؤمنين الفـــاروق ((نعـــم العدلان ونعمت العلاوة)) ، الديوان ص١٦٧.

رَاجِعُونَ﴾ فنعم العدلان ونعم العلاوة التي تضاف عليهما .. فالصبر والإيمان بالله وبحكمه وقضائه هي التعزية والسلوان وتخفيف المصاب.

ثم يخاطب الشاعر فقيده ويخبره بان فقدانه قد ترك شرخاً كبيراً وثغرة لا تسدّ في جدار العمل الإسلامي :

أما علمت عبيد الله أن ثلمتْ وفاتك **الشرع لا تسندّ ثُلمتها**

وفي هذا المعنى ــ كما ذكرنا سابقاً ــ إشارة إلى الحديث النبوي الشريف ***[ما قيض الله تعالى عالماً من هذه الأمة الا كان ثغرة في الإسلام لا تنسد ثلمتها إلى يوم القيامة]*** [١] كما فيه إشارة إلى مكانة المرثي ومنزلته الرفيعة العالية في العمل الإسلامي ، والتي بموتها لا يستطيع أحد سدّ فراغها ومعالجة النقص الذي سيتركه ، لانه كان حامياً للسنة وحافظاً لها ومدافعاً عنها ضدّ أولئك الدعاة الأشقياء:

غدت بك **السنة الزهراء ناعمةً**

حظ وفوز وفيض منك **تحفتها**

ويدعو ــ كعادته في المراثي ــ للمتوفى بان يكرمه الله تعالى ويجزيه خير الجزاء على مكارمه وفضائله ومفاخرةً تلك وأن يجعل الفردوس مستقره في درجات علاً .

جزاك ربك في الفردوس أجزيةً

تنمى وتُنمى ولا تُمنى جزالتها[٢].

ويعود الشاعر مرة أخرى ليؤرخ يوم وفاة الفقيد ويشير إلى نظمه متفاخراً ــ ومن حقه ــ بما قدمه من شعر متين رصين ولغة جميلة وألفاظ عربية سليمة تدل

---

(١) رواه السنجري في الابانة عن أصول الديانة ، والموهبي في كتاب العلم عن ابن عمر "رضي الله عنهما" عن النبي ﷺ ، أنظر الديوان ١٦٧.

(٢) تَنمى : تزاد ، تُنمى : ترفع ، لا تمنى : لا تقدر ، أنظر الديوان ص١٦٨.

على مقدرة الشاعر اللغوية والأسلوبية وتبحره في اللغة العربية .. حيث بنى هذه القصيدة على لزوم ما لا يلزم وهذا أمر ليس بالسهل حتى على شعراء العرب ..

والنصان السابقان يكفيان لإعطاء مستوى رثائه الشعري ومدى حيوية النص وتفاعله وروحيته ، ومقدار صدقه في التعبير عما يجيش به صدر الشاعر من أحاسيس وعواطف تجاه المرثي .. ولكننا نرى من الاهمية أن نتعرف في دراستنا هذه على تائيته التى نظمها في رثاء الشيخ محمد إسماعيل القادري النقشبندي الشاذلي [١] التي مطلعها:

عدت شوطها أم ظلّ (فيها) وظلّتِ ببطنٍ بطينٍ والظلال أقلّتِ [٢]

وذلك لانها تختلف عما عرفناه من مراثي لشاعرنا حيث بدأها بجوٍ صوفي مملوء بالابهام وبالغموض وبتعبيرات لا تدرك معانيها الظاهرة .. مستخدماً الرمزية الصوفية والمصطلحات الصوفية ذات المدلولات والاشارات المتعارف عليها بينهم فهي أشبه بكلمات السرّ .. ((والصوفية في جميع العصور كانت لهم رموز واشارات .. والذي يتأمل ألفاظهم يراها تدل على لباقة وذكاء ، فألفاظهم المعاشية والاجتماعية وضعت في الاصل لستر معانيهم عن عامة الناس))[٣]. ولذلك نجد أن معجمهم اللغوي حافل بالفاظ وعبارات ((مما يدخل في باب الرمز والاشارة

---

(١) لم نعثر على ترجمة له .. وعند الرجوع الى كتاب الشيخ ممتاز الازهري أكد هو الاخر عدم وجود ترجمة للشيخ الشاذلي ويفهم من القصيدة أن تاريخ وفاته كان عام ١٣١١هـ ، انظر كتاب الازهري ص٣٣٥.

(٢) الديوان ص١٧٥ وقد زدنا لفظة (فيها) ليستقيم الوزن .

(٣) د. زكي مبارك : التصوف الاسلامي ٧٦/١.

والالغاز والتعمية مما لا يمكن ادراك مدلوله الا لنظرائهم من مخاطبيهم لان صلتهم بالله لم توضع لها مفردات خاصة بها))[١].

ويرجع الشيخ ممتاز الازهري في دراسته القيمة عن الشيخ أحمد رضا خان، شاعراً عربياً ، اهتمام شاعرنا بالرمزية الصوفية وعنايته بها الى تـأثره بـالادب الاردي، وذلك باعتماده على دراسة قدمها الدكتور ابتسام صالح الدين التي تقـرر وجود الرمزية في الشعر الاردي في الهند وأن بعـض الشـعراء الهنـود كـانوا يستخدمون الاشارات والكنايات التي تصل في عمقها وغرابتها الى حد الابهام ..[٢]. ولذلك فان الشيخ ممتاز الازهري يخلص الى ان شاعرنا قد تـأثر أولاً بالرمزيـة السائدة في الشعر الاردي لانها لغته الاولى ... وانه كان منـدفعاً الـى الرمزيـة لوجودها في الادب العربي الصوفي الذي كان يحمل له حباً خاصـاً[٣]، وبقـراءة متأنية لمقدمة القصيدة نلاحظ انه أغرقنا في أجواء غامضة وعبارات مبهمة ،فهـي أشبه بلغة خاصة بينه وبين المرثى بل انه تقصد الايغال في الابهـام ، والا بمـاذا تفسر هذه اللغة وتلك المعاني ؟ وبماذا يرتبط بيت واخر ، وصورة وأخرى وهنـا نؤيد تحليل الشيخ ممتاز الازهري لهذه المقدمة المتميزة عن غيرها بقوله ((وكـأن شاعرنا من كثرة الحب لمرثيه مولانا محمد اسماعيل القادري استحضره في نفسه ، فيتحدث اليه بالرموز التي لا يفهمها أحد الا من كان من أهل الطريقة وممـا هـو جدير بالذكر ان شاعرنا ومرثيه كانا من أهل الطريق))[٤].

---

(١) في الأدب الصوفي : الدكتور لطفي عبد البديع محمد ص٧٣ ط١ ، التاريخ بلا.

(٢) ينظر كتاب الأزهري ص٣٤٠ ، ٣٤١.

(٣) نفسه ٣٤١.

(٤) نفسه ص٣٤٢.

إذن فخطابه موجه للمرثي دون سواه .. ومناجاته كانت خاصة بينهما لا يفهمها غيرهما ... يقول :

عدت شوطها أم ظل (فيها) وظلت

ببطنٍ بطينٍ والظلال أقلتِ [١].

فما لي أرى بالليل طولاً كأنها

بَرام بردِم الجفر أو فيه حلتِ

أَنكّسها أتباعَ عـــالٍ مُغربٌ

لربتها في السير أم هي ضلت

أَمشرقة كانت مشرقة الكلل [٢]

مكللة فيها النواظر كلّت

يتساءل الشاعر في مطلع القصيدة عن روح المتوفى .. أباقية في الشوطب (مكانها) أم انها تجاوزته ؟ فلماذا أنا متعب ومهموم وليلي طويل مملوء بالقلق والمعاناة والسهر فكأنه كومة أحجار تردم بها بئر كبيرة؟ ؛ ولماذا هذا الليل لا ينجلي ولا يبدو له فجر أو تشرق فيه شمس ؟! فقد طال الانتظار وكلت النواظر حتى لكأن الصبح ضل الطريق .. ثم يعود فيبرر طول الليل بما يحمله من هموم كبار والآم جسام :

بلى ليل ذي همٍّ طويلٍ وسيما

همومٍ على أعلى مهائم جلّت

---

(١) الديوان ص١٧٥ وفي الديوان اضطراب في الشطر الثاني من البيت الثاني فاجتهدنا في تصحيحه (وكان على الصيغة الاتية : برام يُرْدم الجفر أو فيه حلّت).

(٢) السكون في كلمة (الكلل) ضعيف عروضياً.

وفكرة الليل وطوله وانتظار الفجر الذي لا يأتي قديمة في الشعر العربي وكثيرة عند الشعراء ... وأقدمها عند الشاعر الجاهلي امرئ القيس حيث يقول في معلقته :

ألا أيها الليل الطويل الا انجلي

بصبحٍ وما الاصباح منك **بأمثلِ** (١).

وماذا يمكن أن نفهم من همهماته ولغته المبهمة في البيتين الاتيين :

ولا غرو أن ضلت فان طريقةً

تلي كالتي في وجهها بل هي التي

يُقاطر صِفرٌ نفَسه وكذا الألفْ (٢).

فمـــا بين بَـــطْ والجيم ظُلْم أضلت

حاول الأستاذ ممتاز الأزهري تفسير هذين البيتين فزاد الابهام ابهامـــاً ولـــم يستطع أن يعطي مراد الشاعر كما لايمكن الاكتفاء بتفسير بسيط ساذج نفهمه مـــن معاني الالفاظ المعجمية(٣) .. فذلك بأيضاً لا يمثل مقصد الشاعر أو غايته ومطلبه .. فالبيتان من الابهام والغموض ما يعميان الفكرة والمدلول.

ثم بعد المقدمة يعود الشاعر ليخاطبنا بلغة واضحة مفهومة وبمعاني شـــائعة تذكرنا بان كل شيء متحول ومتغير ولا يبقى على حاله ولابد لكل محاق أن يسفر عن هلال وبدر .. وقد تحجب السحابة الشمس لبعض الوقت ولكنها ســـرعان مـــا تزول فتشرق الشمس نهاراً والنجوم تلتمع وتبتسم للطبيعة ليلاً :

ألا كلُ رزءٍ في دناك **لمنتـــهٍ** (٤).

وكل محاقٍ مسفرٌ عن أهـــــلة

---

(١) شرح ديوان امرئ القيس ص٣٦ -منشورات -دار الفكر بيروت ١٩٦٨.
(٢) السكون في كلمة (الألف) ضعيف عروضياً.
(٣) كتاب الازهري ص٣٤٦.
(٤) في الاصل (منته) وزدنا اللام ليستقيم الوزن.



ألم تر أنّ الله يزجي سحابةً

فتُسبلُ حُجباً اذ حوت إذ تجلت

ويلتفت بعد ذلك الى لبّ الموضوع وجوهره وهو الموت والرثاء والبكاء ... فيقرر أن كل شيء متغير وغير باقٍ على حال فمن الحزن يولد الفرح ومن الظلام يولد النور ... ولكن الموت هو حتمية على كل مخلوق ولا مفر منـــه ... وأن كـــل ميت يخلفه انسان حي من ولد او بنت ولكن العظماء حينمـــا يموتـــون لايمكـــن أن يخلفهم أحد:

سوى الموت بل عن كل موت خليفة

ولا خلفَ (عن) فقد غرّ أجلةِ.

ثم يأتي بعد هذا البيت بالرثاء فيذكر مجموعة مـــن علمـــاء أهـــل الســـنة والجماعة.. أحدهم هو المرثى محمد اسماعيل القادري ... ويشير الى انهم مضـــوا وبقي هو وأصحابه ينتظرون قدرهم أليس الله تعالى يقول في محكـــم كتابه ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: من الآية٢٣).

قضى نحبه قـــوم نحبٌ وننتظر

نُرجى ونُخشى من شرور أضلت

مضوا وبقينا خَلفَ لم يكُ بيننا

تراءٍ ولا عينٌ برؤيـــا تسلّتِ

ويسأل الله تعالى أن يجمعه بهم في جناته.

ويخصّ اسماعيل بأبيات تتضمن الثناء على خصاله ومكارمه وصفاته ،وانه كان حافظاً للدين ، مناوئاً للبدع والانحرافات وساعياً الى اظهار الحق واسناده .

صيانةُ دينٍ أو إهانةُ بدعةٍ

إبانةُ حقٍ او إعانةُ خَلّةِ

ويأتي بعد ذلك بوصف مراسيم غسله وتكفينه وتعطيره فكان المسك والريحان وشذا الشاذلية تفوح في المكانة ثم يؤرخ للمرثى ثلاث مرات في أشطار البيتين رقم ٣٣،٣٤ من القصيدة وبعدها يترحم على المتوفى ويدعو له بالسقيا على طريقة الشعراء القدامى ويختم القصيدة :

وَقتْكَ مراقي اللطف كلّ كريهةٍ

سقتك **سواقي الرّأف آرِجَ طَلّةِ**

ومنهمراتُ السحب من صلواته **على المصطفى والصحبِ هلّت بهلة**

ما أجمل أن ينهي مرثيته بالصلاة على النبي المصطفى محمد ﷺ وأن ينتشي ويترنم بحميا الصلاة وبخمرة الحب الالهي والشوق النبوي وهو أسلوب صوفي استخدمه قبله كثير من شعراء التصوف فهي مدام وليس كأي مدام .. انها خمرة الروح ومدام النشوة الالهية التي تشفى بها الذات وتشف وتغدو هائمة في أجواء سماوية محلقة في الآفاق العلى ..

تديم مداماً شاملاً لعبيده **وأبعدهم لو ندّ لم يتفلّت**

ويدعو الله تعالى أن يمنحه شيئاً من تلكم الخيرات وأن يرطب فؤاده ويلطف ذاته ولو بقطرات من ندى (إن لم يُصب وابل فطل ..) ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة:٢٦٥).

ويتوجه في البيت الاخير الى الله تعالى متوسلاً برسوله المصطفى ﷺ ، أن يغفر له ذنوبه ويمحو زلاته ...

وأرض الرضا إن لم يُصب وابلٌ فطلّ

نـدى منك لي كالديمة المستهلةِ

إلهــــي اليكَ بالحبيب تـــوسلي

بـه فاغفرِ اللهم ذنبي وزلتـــــي

وتمتاز هذه المرثية عن غيرها من المراثي بانها صيغة بلغة متينة وبأسلوب متماسك وبناء صلب ، وكأنها قصيدة جاهلية أقيمت على بحر الطويل وعلى قافيـــة التاء المكسورة والمسبوقة باللام المشددة أي لزوم ما يلزم وهذا أمر نادر في قوافي شعراء العرب لانها من القوافي الصعبة التي لا يركبها الاكبار الشعراء المتمكنون . وقد أشار الى ذلك الشيخ ممتاز الازهري [١].

كما ان الشاعر حقق جواً صوفياً مملوء بالابهام موغلاً بـــاللغز والغمـــوض ولاسيما أبياته الاولى وكما أشرنا الى ذلك في دراستنا .

وللشاعر أحمد رضا خان مراثى أخرى عديدة قالها في أشـــخاص تجمعـــه واياهم اما المصاحبة أو التلمذة أو المراسلة أو وحدة النضال والكفاح في جمعية أهل السنة والجماعة أو تربطه بهم علاقات اجتماعية وأســـرية .. ولكـــن معظـــم تلـــك المراثى عبارة عن بطاقات تعزية نظمها بهدف تسجيل تاريخ الوفاة ، فمن ذلك مثلاً رثاؤه للسيدة سكينة زوجة الشيخ محمد عبد السلام الجبلفوري .. أحد تلاميذه الذين تلقوا علم الفقه والعلوم الدينية على يديه ونال الاجازة منه وكانت بينهما مراســـلات ومكاتبات بعد عودته الى بلده مدينة (جبلفور) [٢] وكان الشيخ محمد عبد السلام قـــد أخبره بوفاة زوجه برسالة ،فما كان من شاعرنا الا أن يبعث إليـــه جوابـــاً باللغـــة

---

(١) انظر كتاب الازهري ص٣٤٣-٣٤٤.

(٢) انظر نفسه : ص٩٣٥.

العربية فيه تعزية وتصبر ودعوة الى الايمان بالقضاء والقدر وأحتساب المصيبة ، ثم ختم الرسالة بثلاثة أبيات يقول فيها [١]:

حلّت لمن عبد السلام حليلةٌ
في العدن وهي حصينة ورزينة

هي للعفاف مدى الحياة لزينة
وبعفو ربي في الممات مزينة

سأل الرضا عام الوفاة مع الدعاء
قلت ارحم التابوت فيه سكينة

وقد جملّ أبياته بالجناس .. وأثنى على المتوفاة بصفات العفاف والرزانة وزينة الايمان وجمال التقوى وأرخ لها بالشطر الثاني من البيت الأخير .. مقتبساً من الآية الكريمة : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾(البقرة: من الآية٢٤٨)، ففي الآية وردت لفظة سكينة وهي بمعنى الطمأنينة وهدوء البال وهي من السكن والهدوء وعدم الاضطراب ... ولكنه في الشعر جاء به تورية واشارة الى اسم الفقيدة[٢].

وفي بطاقة تعزية أخرى نظمها شاعرنا مؤرخاً عام رحيل الشيخ محمد عبد الكريم الحيدر آبادي الذي كان من معاصري شاعرنا ومن الذين تربطهم به روابط العلم والدين ، وكان أحد أبنائه تلميذاً للشاعر . فلما توفي الاب محمد عبد الكريم أسرع شاعرنا بارسال رسالة الى ابنائه يصبرهم فيها ويدعوهم الى التأسي والرضى

---

(١) الديوان ص٢٠٢.

(٢) انظر : كتاب ص٣٩٦.

بقضاء الله ثم أورد فيها خمسة أبيات يقرر فيها حقيقة معروفة ان الذي خلّف أولاداً لا يموت ذكره ولا ينتهي أثره ... ولا سيما اذا كان أولاده من الصالحين المؤمنين قال النبي ﷺ ***[اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد يدعو له]*** [١]. فالمتوفي له خمسة أولاد ... وعبد السلام المذكور في الابيات هو أحدهم وكان تلميذه وكان علماً شامخاً في بلده معروفاً بدينه وورعه... فمن ترك مثل اولئك الاولاد الصالحين لا يمكن أن يموت ... يقول :

قيل مات الزكي عبد الكريم … قلت كلا بل احتظى بدوام[٢].

حيٌّ عن بنيه فكيف يموت ؟ … إنما الميت هالك الأوهام

أيموت الذي خلّف ؟ … سلّم اللهُ مثلَ عبد السلام

جبلُ الدين راسخ بقيامه … في جَبْلفور شامخُ الأعلام

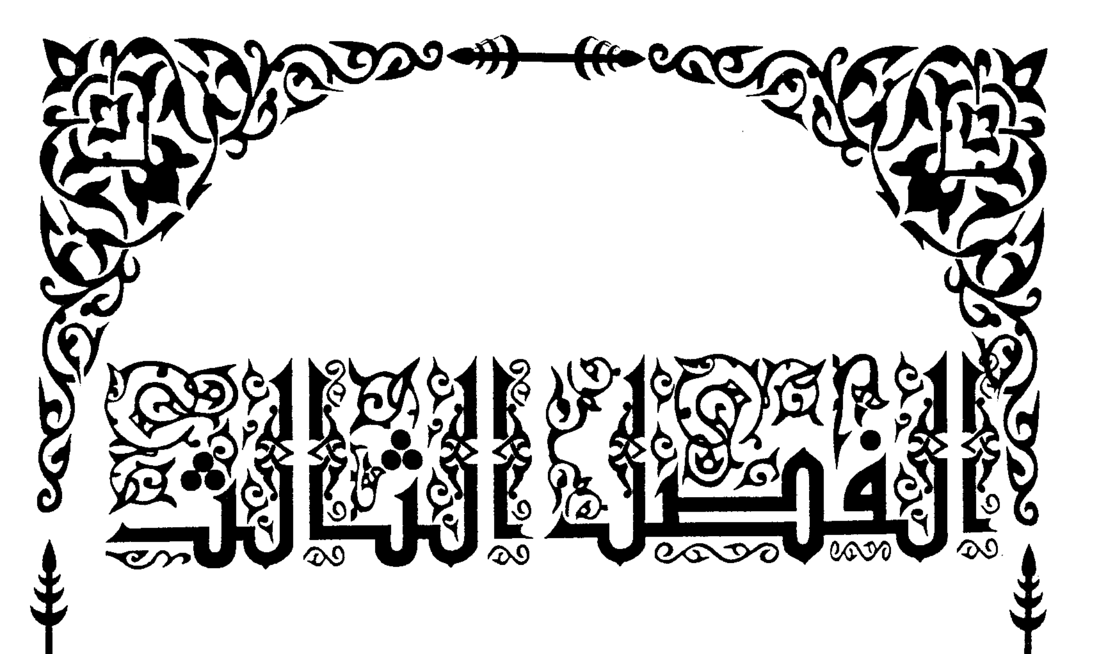
قلتُ تاريخ عيشه الأبديّ … دام عبد الكريم خُلْد كرام

ويبدو من هذه البطاقات الخفيفة السريعة انها تكشف عن ولع الشاعر ومقدرته في التاريخ الشعري ، وسوف نتناول ذلك في دراستنا الفنية لشعره .

---

(١) صحيح مسلم القسم الاول من الجزء الثاني ص٦٧ .

(٢) الديوان ص١٩٨.



الجوانب الفنية في شعر الرضي

القصائد الرضوية بين الشكل والمضمون

في الدراسات الفنية للشعر تقف أمام الباحث القضيتان القديمتان الجديدتان .. وهما قضيتا الشكل والمضمون أي اللفظ والمعنى **أما القضية الأولى** قضية الشكل فهي اهتمام الأديب باللفظة وبالعلاقات الأسلوبية والبلاغية مع جيرانها.. ومن ثم تكوين الجمل والعبارات ثم بناء الصور الفنية والرسم بالكلمات .. ومدى قدرة الشاعر على تنظيم الألوان والأشكال والتوافق فيما بينها من أجل تقديم لوحة فنية مدهشة للقارئ والسامع .. وما يتطلبه ذلك من حسن استخدام وسائل التعبير وأنماط البديع من طباق وجناس ومقابلة .. يضاف إلى ذلك ما تحدثه تلك الألفاظ من أصوات موسيقية ونغمية تحسنها الأوزان والقوافي إلى غير ذلك من أساليب وصيغ يعتمدها الشاعر لخلق ذلك الجو الاحتفالي في أبعاد الخلق الفني .. بما يحقق روعة الابداع وجمالية العمل الشعري، فالكلمة ركن رئيس لأي عطاء أدبي **((وعامل من أقوى العوامل التي تتوقف عليها قمته الجمالية ، والاداء الفني الجميل أساسه الدقة في اختيار الكلمة ووضعها في بيئتها وامتزاجها مع معناها))**[١]، فالكلمة تأخذ مزيتها وجماليتها من حسن الايتاء بها في موقعها المناسب **((فالأديب المرهف هو الذي يوفر للألفاظ جواً من الألفة والالتئام فيما بينها فيسمح لها بان تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والايقاع وأن تتناسق ظلالها وايقاعاتها مع الجو الشعوري الذي نريد أن نرسمه))**[٢] ، ولذلك فان للكلمة أهميتها في البناء الشعري

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، الدكتور عبد الحكيم بلبع ص٢١٦ ، القاهرة ط . لجنة البيان العربي ط٢ ١٩٦٩م.

(٢) في النقد الأدبي، الدكتور كمال نشأت ص٣٤ ، النجف مطابع النعمان ١٩٧٠.

وهي غاية الشاعر ومبتغاه اللذان يحرص على انتقائها واختيارها مما يمتلكه من ثراء وذخيرة لغويتين ، وتتكامل عناية الشاعر باللفظة بما تحدثه من أصوات وموسيقى ((**بنفسها ومع مجاوراتها من الألفاظ ثم بالجمال الذي تضيفه على التركيب من جراء رونقها وسلاستها ، ثم بالايحاء الذي تحمله طيها والشحنات التي تتجمع عبر تأريخها**))[١] ، فالقصيدة على وفق هذا الرأي هي بناء خارجي يقوم على اللفظ والصوت واللون وبه يخفّ وزن المعنى ويغدو هامشياً ويكون التركيز في العمل الفني على ((ما يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعانٍ وذلك التكثيف للمعنى الذي نشعر به في أية قصيدة أصلية انما هو حصيلة لبناء الأصوات))[٢]، وليست هذه القضية هي شغل المحدثين فحسب بل كانت كذلك شغل النقاد العرب القدامى ، فقد كان الجاحظ يرى ((**ان المعاني مطروحة في الطريق يأخذها من يشاء وإنما العبرة باللفظ**))[٣] ، ويؤيده بهذا الرأي أبو هلال العسكري حيث يقول ((**وليس الشأن في ايراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى الا أن يكون صواباً**))[٤] ولذلك كان أولئك النقاد يرجحون اللفظ والشكل وما يتعلق بهما من أصوات وموسيقى ومن

---

(١) الشعر في ظل بني عباد ، د. محمد مجيد السعيد ص٢٤٥ ، مطبعة النعمان – النجف سنة ١٩٧٢.

(٢) الشعر والتجربة ، ارشيبالد كلليش ص٢٣ ترجمة سلمى خضراء الجيوسي – بيروت – دار اليقظة العربية ١٩٦٣.

(٣) الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، د. محمد مجيد السعيد ص٣٣١ الدار العربية للموسوعات – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٨٥.

(٤) كتاب الصناعتين ص٥٧ و ٥٨ تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل – القاهرة – دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٢م.

علاقات وانسجام بين بُنى القصيدة على غيرها من عناصر العمل الأدبي وبخاصة المعاني والمضامين والأفكار..

وأما القضية الثانية فهي المضمون والمحتوى الذي تبنى عليه القصيدة وتؤطره الألفاظ والكلمات والصور الشعرية التي تتألف من تلك الجزئيات، فالمضمون والفحوى لابد أن يكونا نقيين صافيين ، ولابد للافكار والمعاني أن تكون شريفة بعيدة عن السوقية والابتذال والسوء ... فالمعنى اللاأخلاقي أو الفكر القبيح السيئ يحاطان من قيمة النص فيبعدان القصيدة عن التقبل والاستجابة مهما كانت ألفاظها وكلماتها جميلة ورائعة.. فلا يكفي النظر إلى الشيء خارجياً .. فالاعماق والبواطن ضرورية ومهمة لتكامل الصورة وتسامي الشكل .. بما يحقق جاذبية واقبالاً من الآخرين المتلقين ، وأمام مناقشة هاتين القضيتين يتجلى لنا رأياً وسطاً يجمع بين الأثنين ويوحد بين الطرفين لتحقيق تكامل وتناسق وانسجام.

فالقصيدة الناجحة والحية – في رأينا – هي التي تقوم على قوة التلاحم والتداخل بين عناصرها ومكوناتها الداخلية والخارجية ، بحيث يصعب التمييز بين المعنى والصورة الشعرية ، ((فالصورة ينبغي أن تكون لحم ودم الفكرة لا مجرد ملابس خارجية لها))[1].

وبذلك ((فان الكلمة وحدها أو بتعاملها مع مجموعة كلمات أخرى تحمل معنىً وصورةً وصوتاً ، وبنمو هذه المعاني والصور والأصوات الجزئية تتألف القصيدة المتكاملة))[2].ومن ذلك تبرز أهمية المضمون في القصيدة .. فالشكل والمحتوى أمران أساسيان لتقديم عملٍ أدبي رائع ومتكامل ((ولا يكفي جمال الفن

---

(1) الشعر والتأمل ، روستر يفورهاملتون ، ص٧٥ ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوي ، طبعة الدار القومية العربية ـــ مصر ١٩٦٢م.

(2) الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، د. السعيد . ص٣٦٩.

وتأثيره الخاص في النفوس للحكم على روعته دون أن يعزز ذلك الجمال بأفكار ومضامين تجعله ذا هدف ومغزى وفائدة))[١].. فالشعر لا يتغذى بالزنابق ، كما يقول الشاعر عبده بدوي ، وانما يستمد قوته وحيويته من الحياة[٢] ٠٠٠٠ وعند تأمل الرأيين السابقين في فنية القصيدة ونجاحها في ايصال التجربة إلى الملتقى نجد أن الأخذ بأحدهما دون الآخر أو ترجيح أحدهما على الآخر يُخل في موضوعية الدراسة الفنية للشعر وينقص من الكشف عن مواطن الجمال والابداع فيه ٠٠ والذي نراه أن التقييم المنصف للعمل الأدبي يقتضي الموازنة بينهما أي بين الشكل والمضمون ((فالفن الناجح والأدب الجيد يستوجبان تلائماً وتواؤماً بين اللفظ والمعنى، بين الشكل والمضمون ويتطلبان عناية واهتماماً بهما على حدٍ سواء بحيث يتساويان ويتوازنان فلا يتقدم المعنى ويتأخر اللفظ ولا العكس))[٣] وبهذا التزاوج والتعشيق بين طرفي المعادلة يتحقق الامتاع الفني ويغتني النص بقيم جمالية معطية ثراءً وابداعاً.. [٤] ولابد من تحقق الانسجام التام بين عناصر العمل الفني ((فليست الكلمة والجملة وما يصاحبهما من زينة وتصنع بقادرتين على صنع أدب جيد بمعزل عن العناصر الأساسية الأخرى من موسيقى وصور ومضمون))[٥].. فالتداخل والتمازج قائمان في أي عمل ناجح .. وبدون ذلك يتسم النص الشعري بالهزال والضعف والتخلخل.

---

(١) نفسه ٣٦٩.

(٢) الشعراء السود ٢٣٠ نقلاً عن (الشعر والحياة) ص١١٣.

(٣) الشعر في عهد المرابطين ، د. السعيد ص٣٣١.

(٤) النثر الفني ، د. عبد الحكيم بلبع ص٢٢٤.

(٥) الشعر في عهد المرابطين ، د. السعيد.. ص٣٣٢.

ولابد بعد هذه التوطئة من العودة إلى شعر أديبنا الأمام أحمد رضا خان لنتعرف على ما حققه من توازن ومن تلاحم بين الداخل والخارج بين الشكل والمضمون .. بين اللفظ والمعنى.

أولاً – القصيدة الرضوية شكلاً :

من خلال دراستنا لشعر الإمام أحمد رضا خان البريلوي القادري البركاتي يتضح لنا مقدار اهتمامه بالشكل وبالبناء اللغوي واللفظي للقصيدة والعناية بالصوت والنغم والوزن واعطاء القافية طاقة موسيقية عالية تدفعه أحياناً إلى المبالغة والخروج عن العفوية والسلاسة كأن يلتزم بتقفية غير ملزمة للشاعر .. ويتجلى اهتمامه بالشكل في مظاهر عدة .. أهمها :

١- لقد انعكست صُور الطبيعة ومظاهرها وجمالياتها وفنونها وألوانها على شعره بشكل عام فاكسبه ذلك روعة في المظهر ونعومة في الملمس ورقة في النغم .. ولوّنه بألوان الطبيعة الغناء وزهورها الرائعة وروائحها الزكية .. وتلمس ذلك واضحاً في معظم قصائده وبخاصة الطويلة منها .. وعشقه للطبيعة وهيامه بها دفعاه إلى أن يعنون ديوان شعره بألفاظ مستمدة معانيها من الطبيعة فسماه (بساتين الغفران) والبستان هو الجنة أو الحديقة الغناء المملوءة بالشجر والثمر والزهور والنبات كذلك كان عنوان ديوان شعره باللغة الأردية (حدائق بخشش) وترجمته (حدائق الغفران) وهذا العنوان شبيه لعنوان ديوانه العربي فالحديقة والبستان هما بمعنى واحد بالعربية . وعندما نتصفح قصائده العربية نجد هذه السمة ظاهرة على عموم شعره .. لنسمعه يقول في مقطع من نونيته :

تمشي وتغشاها الصبَّا فكأنها   غصن سويّ مائد متهان[1].

([1]) بساتين الغفران ص٧٣.

ياحسن غصنٍ فيه من كلّ الجنى عنب وعُنّاب به سلواني
واللوز فيه الفوز والتفاح وال رطب ولا تسأل عن الرمان

فالصور الشعرية والتشبيهات كلها مستمدة من الطبيعة .. من حديقة عامرة مملوءة بالشجر وأنواع الثمر ؛ وفي ختام القصيدة نفسها وعند تكرار الصلاة على النبي محمد ﷺ يأتي بصور جميلة رائعة مستمدة من الطبيعة أيضاً ثم ينهي آخر القصيدة بالصدر الشعري الأول الذي بدأ به طويلته : يقول :

صلى عليك الله يامالك الورى ما غرّد القُمريّ في الافنان[١]
صلى عليك الله يافرد العلى ما أطرب الورقاءُ بالالحان
صلى عليك الله يامولاي ما رنّ الحمام على شجون البان

فقد أورد الشاعر صور الطيور المغردة والحمام الساجع ... صوراً جزئية يكمل بعضها بعضاً لتكتمل الصورة المطلوبة .. صور الطبيعة بأفنانها وأغصان أشجارها وما تحققه الطيور والقمري والحمام من حركة وما تطلقه من أنغام وألحان ورنين وأنين وهديل إلى غير ذلك.

وفي مرثية له ينسج صوراً من الطبيعة .. من سحابها ومن طلّها ونداها .. ليعبر عن سحائب وتابيب الرحمة والمغفرة للمرثي .. ويستنزل الاجر والنوال على صاحبه ويطلب في الوقت نفسه أن يمنّ الله عليه بشيء ولو قليل مما أصاب فقيده ، قال مؤرخاً :

ينمق في تاريخ رحلته الرّضا سحائب مَيْمِ السفم مثواك بلّت[٢].
وقتك مراقي اللطف كلّ كريهةٍ سقتك سواقي الرّأفِ آرجَ طلّة

---

(١) الديوان ص٨٨.

(٢) نفسه ص١٧٧.

ومنهمرات السحب مـــن صلواته على المصطفى والصّحب هلّت بهـلةِ

وأرض الرضا ان لم يُصب وابلٌ فطلٌ نـدى منك لي كالديمة المستهلةِ

فمعجم مفرداته في هذا اللون مستقاة من معجم الطبيعة .. تتردد فيه ألفـــاظ مثل : الصبًا (الريح) ، الغصن ، العنب ، العناب ، السلواني ، اللـــوز ، التفـــاح ، الرطب ، الرمان، القمري ، الورفاء ، الحمام ، الاغصـــان الشـــجون (الفـــروع) ، الأفنان ، البان ، غرد ، أطرب ، رنّ ، السحائب ، الســفح ، ســقى ، الســواقي ، الوابل، والطل ، والنوى ، والديمة.. إلى غير ذلك وكلها ألفاظ تحمل معاني من آفاق الطبيعة وأجوائها ومكوناتها. ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نفرد للوصـــف غرضـــاً مستقلاً لان عنايته بهذا الفن لم تأت في شعره منفردة أو مقصودة وانما جاءت لتخدم أغراض أخرى.

٢- ولغرض تحسين الشكل وإكسائه بجمالية مميزة واعطائه رونقاً جذاباً .. يستميل قلوب المتلقين ، يعمد الشاعر أحياناً إلى الاقتباس من القرآن الكريم ومـــن الســـنة النبوية المشرفة أو التضمين من تراث العرب والمسلمين وهذا كثير في ديوانـــه .. ولا غرابة في ذلك فان معظم شعره كان ينبع من روافـــد إيمانيـــة وثقافـــة دينيـــة وعربية.. وأمر مثل هذا يعد طبيعياً لشاعرنا لأنه ترعرع ونما ونبغ في أجواء دينية أعدته اعداداً متكاملاً من أجل ذلك .. فغدا الاقتباس سمة مميزة من سمات شـــعره ((وذلك لما للدين في نفسه من أثر فتغذى وارتوى منهما نفسُه الشـــعري وطابعـــه اللغوي فأصبحا يظهران واضحين في كل ما قاله من شعر عربي))[١].

ونرى أن الاقتباس من الكتاب المبين ومن الحديث النبوي الشريف لا يتوقف تأثيره وجماليته ورفعته على الشكل والظاهر من النص الشعري وانما يمتد إلى المضمون

---

(١) كتاب الازهري : الإمام أحمد رضا خان ص٥٦٩.

وإلى المحتوى فيزيد من شرفه ومن متانة فكرته وسلامة أبعاده المعنوية ... ومن يتابع ديوانه يلحظ كثيراً من اقتباساته باللفظ أو بالمعنى فمن ذلك مثلاً قوله :

وإذا ذكرت نبينا فاذاهمُ

جعلوا أصابعهم وكالأذان [١].

فالشطر الثاني مأخوذ من الآية الكريمة ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (سورة البقرة آية ١٩) ونجده يقتبس معنى آية من الذكر الحكيم في بيته الآتي :

قم يارضا لا تغش أهل غِشاوةٍ

ذرهم وماهم فيه من خذلان [٢].

فهنا نراه يستفيد من بعض ألفاظ الآية الكريمة الآتية ومعانيها ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (سورة الأنعام آية ٩١).

وأحياناً يأتي باشارة ضمنية لقصة أو لمثل قرآني ، فمن ذلك قوله مشيراً في البيت الأول إلى قصة قارون وفي البيت الثاني إلى قصة بلقيس ملكة سبأ .. والقصتان واردتان في القرآن الكريم :

وهبْ أن صرتم قارون قرنٍ	**فهل للمال أم لكم خلـــود [٣].**
ومن سبأٍ أتى نبأ يقيـــن	**عفت وعفالها العيش الرغيد**

أما قوله :

---

(١) الديوان ص٧٧.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ١١٨.

على المولى من الأعلى صلاة تفيض فتستفيض بها العبيد[١].

فهو اقتباس من قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾(سورة الاحزاب ، الآية ٥٦)

ومثله قول شاعرنا

وليِّيْ ثم أنت بنا لأولى

من انفسنا وربِّ بذا شهيد[٢].

فهو اقتباس من قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب: من الآية٦).

أما اقتباساته من الحديث فنشير مثلاً إلى قوله :

ياللحيا وأرى عراة عالةً يتطاولون عليه في البنيان[٣].

فاقتباسه في هذا البيت من حديث أشراط الساعة حيث ضمنه بعض ألفاظه ومعانيه فقد روى [*ان النبي ﷺ كان بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال .... قال متى الساعة ؟ قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربّها وإذا تطاول رعاة الأبل البهم في البنيان* ..الخ][٤]

وفي قوله :

قد قلت اني عند ظنّ العبد بي ظني بك الاحسانُ يامناني[٥].

---

(١) الديوان ١٢٥.

(٢) نفسه.

(٣) الديوان ص٧٧.

(٤) صحيح البخاري ١٩/١ كتاب الإيمان (جزء من الحديث).

(٥) الديوان ص٨٧.

اقتباس من الحديث القدسي الشريف *[أنا عند حسن ظن عبدي بي...]*[١].

ويقتبس في موقع آخر من الحديث النبوي الشريف القائل *[ما قبض الله تعالى عالماً من هذه الأمة الا كان ثغرة في الإسلام لا تنسد ثلمتها إلى يوم القيامة]*[٢] وذلك في بيته الآتي في رثاء أحد العلماء .

أما علمت عُبيد الله أن ثلمت   وفاتك الشرع لا تنسدُّ ثُلمتها[٣].

ومنه أيضاً قوله :

إذ ما دد مني ولا أنا من ددِ

إذ جئت أمدح رُحلة لاواني[٤].

فقد اقتبس الشطر الأول من الحديث النبوي الشريف *[ما أنا من دد ولا الدد مني]*.

أما التضمين فهو أيضاً كان سمة وخاصية من خصائص شعره .. فكان يأتي بنص شعري عربي أو بمعناه فيضمنه قصائده .. فهو ينتح من ثروة أدبية غنية تقوم على سعة اطلاع وخزين غزير من أشعار العرب القدامى بشكل خاص ، من ذلك مثلاً تضمينه بيتين للصرصري[٥] قالهما في مدح المصطفى ﷺ .. وفيهما يدلل شاعرنا على شرعية القيام عند ذكر سيرة النبي محمد ﷺ وان القيام بدعة حسنة كانت متبعة عند العلماء الكبار أمثال الإمام السبكي[٦] ، والبيتان هما[٧] :

---

(١) جزء من الحديث القدسي : أنظر البخاري : كتاب التوحيد باب (ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله)

(٢) رواه السنجري في الابانة عن أصول الديانة والموهبي في كتاب العلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ ، وأنظر الديوان ص١٦٧.

(٣) الديوان ص١٦٥.

(٤) الديوان ص٧٤ الرُحلة الذي يرحل اليه لتلقي العلم والمعرفة ، الدد : اللهو واللعب .

(٥) الصرصري : هو سليمان بن عبد القوي الصرصري أبو الربيع ، فقيه حنبلي من العلماء ، وله مؤلفات في أصول الدين والفقه وأصول الفقه والأدب ، ولد في العراق وتوفى في مصر. أنظر : الاعلام للزركلي ط٢ ، ج٣ ص١٨٩.

(٦) الديوان ص١٧٣.

(٧) الديوان ص١٧٢.

قليل لمدح المصطفى الخطُّ بالذهب

على فضةٍ من خطِّ أحسنِ مـــن كتب

وأن ينـهض الاشراف عند سماعـه

قياماً صفوفاً أو جُثّياً على الركـب

فقد ضمن شاعرنا هذين البيتين في قصيدة نظمها في القيام بتعظيم شأن نبينا المصطفى ﷺ حيث يقول :

سواد عيون العين عينُ سنا ذهب ولوح نحور الحور لام كما يُحب[1].

فان يمل جبريل لقالَ أولـو الأدب

قليل لمدح المصطفى الخطّ بالذهب

على فضةٍ من خطِّ أحسن مـــن كتب

يقومُ بحق المدح قـــوم فلانَهِ توله وقم بالوجد قومة واله

فحق خضوع الوجه رغماً لكــارهِ

وأن ينـهض الاشراف عند سماعه

قياماً صفوفاً أو جُثياً على الركب

وفي نونيته الطويلة ضمن أديبنا في أكثر من موضع أجزاءً من ألفـــاظ أو معـــاني للشاعر المخضرم كعب بن زهير بن أبي سلمى في قصيدته اللامية المشهورة ذات المطلع (بانت سعاد) التي مدح بها النبي محمد ﷺ ففي قول أديبنا بمقدمته الغزلية :

لا تنجز الميعاد لكن لم أكـــن

لأعيبـها كلا وما هو شانـي[1].

---

(١) الديوان ص١٧١.

تضمين لمعنى بيت كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوبٍ لها مثلاً

وما مواعيدُها الا الأباطيل[٢].

وكذلك قوله :

تمشي وتغشاها الصَّبا فكأنها

غصن سوي مائد متهـــان[٣].

مأخوذ من كعب وهو يتغنى بجمال حبيبته وقوامها المعتدل السوي :

هيفاءُ مقبلةً عَجزاءُ مـــدبرةً

لا يُشتكى قصر منها ولا طول[٤].

---

(١) نفسه ٧٣.

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص٨.

(٣) الديوان ص٧٣.

(٤) شرح ديوان كعب : هامش ص٦ ، وقد أشار الناشر ان هذا البيت ورد في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ولم يجده في مصدر آخر.

ولديه تضمين آخر لأبيات الشاعر أمية بن أبي الصلت[١] التي نظمها في مدح عمرو بن عبيد الله بن معمر التميمي وقيل انها في مدح ابن جدعان ، التي يقول في أولها[٢] :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك انّ شيمتك **الحياءُ**

ومنها :

خليل لا يغيره صباح **عن الخلق الجميل ولا مساء**

اذا أثنى عليك **المرء يوماً** **كفاه من تعرضه الثناء**

فقد ضمن الشاعر الأبيات السابقة نصاً كما في البيت الأول منها ، وتصرفاً أو تغييراً بسيطاً كما في البيتين الاخيرين : يقول شاعرنا :

أأذكر حاجتي اما قد كفاني **حياؤكان** شيمتك **الحياء**[٣].

إذا أثنى عليك **المرء يوماً** **كفاه من** توضُّئك **الثناء**

كريماً لا يغيره صباح **عن الخلق الكريم ولا مساء**

ويمكن تأشير مواضع عديدة في هذه القصيدة أو في الديوان تضمنت نصوصاً عربية شعرية سبقته في ديوان العرب[٤].

٣- ولم يكن شاعرنا بعيداً عن وسائل الجمال الشكلي الذي تحققه الالفاظ وعلاقاتها مع غيرها ، وما تولده من أصوات وموسيقى فقد أدرك ما تتركه تلك المحسنات اللفظية من تأثيرات وأبعاد نفسية لدى المتلقي ، وما تحققه من إندهاش وروعة

---

(١) أمية إبن أبي الصلت شاعر مخضرم عاش زمن النبي ﷺ ولكنه لم يسلم وكانت له قصائد في رثاء قتلى المشركين .. وله موقف معروف في تحريض الكافرين ايام بدر توفي سنة تسع للهجرة . وقد نشر شعره الأستاذ الدكتور بهجت الحديثي.

(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام الطائي ، ص٥٩٢ باب المديح والأضياف.

(٣) الديوان ص١٤٨.

(٤) كتاب الأزهري ص٥٧٠ حيث ذكر أكثر من موضع كان للشاعر فيه تضمين.

وجمالية تكسب النص قوة وحسناً وزهواً .. فكان لذلك يعمد شاعرنا إلى استخدام تلك الوسائل البلاغية للوصول إلى هذه الغاية .. وكان في بعض الأحيان يغرق في ذلك ويكثر منها حتى تكاد أن تضفي على النص سمة الافتعال والتصنع .. وكأن غايته هي هذه المظهريات والاردية الخارجية ، فمن استخداماته للطباق والجناس في شعره كثير وكأنه يريد أن ينبهنا ويلفت نظرنا إلى قدراته اللغوية والبلاغية في لغة غير لغته الأم وهي اللغة العربية .

فمن استخدامه للجناس قوله :

وجما الجمالِ جلا العنا   وجلا الجلالُ السرمدي[1].

ومعنى البيت ان الجمال الباهر الواضح قد أزال التعب والعناء فظهر وبرز الجلال والكمال السرمديين. وقد جانس الشاعر جناساً ناقصاً بين ألفاظ : جما وجمال وبين جمال وجلال وجناساً تاماً بين جلا وجلا.

وقد زحم البيت الآتي بالجناس الناقص والتام ، يقول شاعرنا :

اني اذا ماهمّ همّ داهم   فأهمّ همتُ وقلت في هيماني[2].

فالجناس واقع في الفاظ : همّ ، وهمّ ، وداهم ، وأهم ، وهمت.

ومثله أيضاً قوله :

تكون كثا بثٍ ثبتٍ ثبيتٍ   تثبّتَ حيث ثبتَه العهود[3].

ويغرق بيته الآتي بالجناس حينما يقول :

---

(١) الديوان ص٦٧ جما : شخص ، جلا : أزال ، وجلا في الشطر الثاني : ظهر.

(٢) الديوان ص٨٢.

(٣) نفسه ص١١٧ ، ثبوت وثبات ثبت بالسكون اي ثابت المقلب.

أن قد أعنت وما عنيت معين

فلأي معنىً ذا المعَانُ معان[١].

فقد جانس بين الألفاظ : أعنت وعنيت ومعين ومعان ومعاني[٢]. وهذا مؤشر على ولعه وحبه الكبيرين لمثل هذه الصنعة البديعية ، وهذا اللون من المحسنات اللفظية ظاهرة بارزة في شعره حتى تكاد تغطي معظم نصوصه.

أما السمة الثانية للمحسنات البديعية فهي الطباق وقد استعان بها أيضاً في تلميع وتحسين ظواهر شعره .. ومنه قوله :

وذا شأن البغي تموت شوقاً

لطاردها وتطرد من يُريد[٣].

فالمرأة الساقطة البغية تتعلق بحب من يرفضها ويحتقرها في حين انها تصدّ وترد بل وتطرد من يحبها ويجري خلفها ويتعلق بها ، فهاتان الصورتان المتناقضتان تمثلان لوناً من ألوان الطباق، ويتحقق الطباق بين لفظي تطرد .. ويريد..

ومن الطباق قوله أيضاً في الهجاء

على الشرّ ناكس من الخير آنس

إلى الزيغ راغب عن الحق ناكب[٤].

---

(١) الديوان ص٧٨.

(٢) أنظر : قصيدتان رائعتان هامش ٥٢. وقد شرح المحقق معاني البيت ؛ أعان : من الاعانة والاغاثة ، وعنيت : قصدت ، ومعين: مخصوص ومعين ، ومعان : اسم مفعول من أعين ، والمعاني من المعاناة وتكلف الأمور.

(٣) الديوان : ١١٨.

(٤) نفسه ص٢١٥.

فطابق الشاعر بين لفظي الشر والخير ، وكذلك بين لفظي ناكس وآنس وطابق أيضاً بين لفظي راغب وناكب.

ونجد الطباق بين الألفاظ في البيت الآتي .

صيانة دين أو إهانة بدعةٍ إبانةُ حقٍ أو إعانة خلة[١].

فالصيانة هي غير الاهانة والدين هو نقيض البدعة ، ولكن الصورتين اللتين رسمهما الشاعر تؤكد احداهما الأخرى.

ومن استخدامه للطباق قوله :

جانبت ظلمتهم وجئت اليك اذ

ماثمَّ بابُ النور في وجداني[٢].

حيث جاء بالمحسنات البديعية مطابقاً بين كلمة جانبت بمعنى أعرضت وابتعدت وبين كلمة جئت التي تعني القدوم والاقتراب ، وكذلك طابق بين لفظتي الظلمة والنور...

وقد يجمع بين الجناس والطباق في البيت الواحد ، من ذلك قوله :

بانت وما لانت فبانت لوعتي

ياخيبتي في الصبر والكتمان[٣].

فقد جانس الشاعر بين بانت بمعنى بعدت وبانت الثانية بمعنى ظهرت وبينهما وبين لفظة (لانت) ، ونجد طباقاً بين بانت بمعنى ظهرت وبين الكتمان وهو الاختفاء.

ولا يخفى على القارئ ان الشاعر كان يجمع في كثير من أبياته بين الجناس والطباق في نص واحد[٤].

---

(١) نفسه ١٧٦.
(٢) الديوان ٧٩.
(٣) الديوان ٧٢.
(٤) أنظر الديوان ص١١٩ البيت ٦٦.

ولكن الشاعر قد يدفعه ولعه بالجناس إلى المبالغة المتكلفة التي ترهق الذهن وتكشف التصنع والبعد عن العفوية والانسيابية يقول مثلاً .

قلب شجٍ مُشجىً شجيج شاجن

أوّه من الاشجاء والاشجان[١] .

ونرى أنه كان مقلداً ومتبعاً لبيت نسب إلى الشاعر الجاهلي صاحب المعلقة الاعشى الكبير ميمون بن قيس ، بل وزاد عليه في عدد الكلمات ذات حرف الشين :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني

شاوٍ مِشَل شَلول شُلشل شَوِلُ[٢] .

ومن تعقيداته اللفظية وتصنعه قوله :

أخضلت خضلَ خضيلتي لخُضلتي

بالجود منك ولم تذر لدهان[٣] .

([١]) الديوان ص٨٤ قصيدتان رائعتان ص٦٦ وقد شرح المحض معاني كلمات هذا البيت في كتاب (قصيدتان، (شج) اسم فاعل من شجى يشجي بمعنى حزن ، ومُشجى : اسم مفعول من الشجى الرباعي ، والشحيح البخيل ، وشاجن اسم فاعل من الشجن وهو الحزن ، و(أوه) اسم فعل مضارع بمعنى أتألم ، والاشجاء مصدر الفعل أشجى ، والاشجان مصدر الفعل أشجن وأشار المحقق كذلك إلى ان البيت مشحون بالجناس البلاغي .

([٢]) ديوان الأعشى الكبير شرح وتعليق الدكتور م. محمد حسن ص٥٩ ، مكتبة الآداب بالجماميز القاهرة – المطبعة النموذجية ، التاريخ : بلا : الحانوت : الخمارة ، شاو : يشوي اللحم ، مشل : سوّاق من شل أي طرد وساق ، وكذلك شلول ، شلشل : خفيف في العمل سريع ، شول : يحمل الشيء.

([٣]) الديوان ص٨٥ ، قصيدتان رائعتان ص٦٧ ، ونستعين ثانية بشرح المحقق لمفردات البيت في كتاب (قصيدتان) ، أخضلت أي جعلته خضلاً أي ندياً مترشرشاً بالماء ، والخضيلة : الروضة الغمِقة ، والخُضلة: امرأة الرجل ، ويقال يومنا يوم خُضلة وهي النعيم.

٤- ومن استخداماته للمحسنات البديعية والوسائل البلاغية استخدامه التورية وهي أن يأتي بلفظ له معنيان أحدهما قريب والآخر بعيد ولكن البعيد هو المقصود فمن ذلك قوله في رثاء الحكيم محمود خان الدهلوي :

بكت العيون أما تريد جموداً

أبكت شريفاً صادقاً محموداً[١].

وقد وضح المحقق للديوان ان الاسم الثلاثي للمرثى هو هكذا محمود صادق شريف خان وبذلك يتضح بان الشاعر قد استخدم أسلوب التورية في شطره الثاني حيث يفهم من المعنى القريب أن العيون بكت ألماً وحزناً على رجل جمع تلك الصفات من الشرف والصدق والحمد ولكنه في الحقيقة كان يعني المعنى البعيد مشيراً إلى فقدان هذا العالم الطبيب الحكيم النطاسي الذي أثر موته هو في الناس وأبكى العيون دمعاً مريراً كما سبق لابائه وأجداده ان تركوا أثراً كبيراً في معاصريهم ، فجاء الشطر الثاني من البيت يرمز إلى اسم المرثى وأسمي أبيه وجده ((وبهذا يعرب شاعرنا عن مدى وقع الفجيعة في النفوس ، وانه تعبير للحزن البالغ الشامل ... فاذا كان الاحياء تفجعوا بهذا الحادث... فالأموات أيضاً تفجعوا لموت الخلف الصالح لخير السلف ، وذلك لتوقف الصدقة الجارية))[٢] ، وبذلك يحقق الشاعر انموذجاً رائعاً وموفقاً في التورية ((وأرى مثله في أحد أبيات قصيدته الدالية الطويلة وهي في مدح فضل الرسول العثماني القادري :

فضل الرسول مؤيد　　　يافضلَ عرسِ أماجد[٣].

---

(١) الديوان ص١٥٣.

(٢) كتاب الازهري ، الشيخ أحمد ص٥٨١ ، ٥٨٢.

(٣) الديوان ص٦٨ وقد كرر التورية باسم ممدوحه فضل الرسول في بيت آخر في القصيدة .

فهو هنا يأتي بلفظ (فضل الرسول) الذي هو صفة أو إشارة إلى بركة الرسول محمد ﷺ وفضائله ومحامده فيورى به ممدوحه المسمى فضل الرسول وبذلك يحقق معنيين في لفظ واحد قريب وبعيد ، وذلك أسلوب بلاغي من بديع أساليب العرب.

ونراه أيضاً يأتي بالتورية في مجال الإيمان والكفران حيث يقول مخاطباً الباري عز وجل :

سبحانك اللهم تُعصى منعماً

ويطاع كلب بيّنُ الشّنَآن[١].

فهذا البيت يضم طباقاً بين شطريه وفيه تورية بلفظة (الكلب) التي يعني بها (الشيطان) الذي يغري الإنسان بالمعصية ويدفع به إلى الكفر والتمرد والخروج عن الإيمان ، فالكلب هنا ليس الحيوان المعروف وإنما هو الشيطان الذي يوسوس في النفوس الضعيفة.

ومن استخداماته للمحسنات اللفظية المقابلة وهي أن يجعل في داخل البيت الواحد أو في داخل البيتين المتجاورين نوعاً من التقابل في الألفاظ معنى أو لفظاً بما يحقق مزيداً من الجمال الصوتي ومن البناء النظمي ، ومن أروع ما جاء في هذا المجال قوله في قصيدته النونية الطويلة حيث قابل بين ألفاظ بيتين متجاورين :

شرقت شوارق لطفه فتبلجت زهر الرشاد تبلج العقيان[٢].

برقت بوارق سيفه فتأججت هام العناد تأجج النيران

فالمقابلة حاصلة بين شرقت شوارق وبرقت بوارق ، وبين لطفه وسيفه ، وبين تبلجت وتأججت ، وبين زهر الرشاد وهام العناد ، تبلج العقيان وتأجج النيران

---

(١) نفسه ٨٦ ، بينَ الشّنَان : ظاهر العداوة.

(٢) الديوان ص٧٤ برقت : لمعت ، تأججت : التهبت.

ويلاحظ في البيتين من قواف داخلية يمكن أن تشطر النص إلى عدة أشطار موحدة الوزن والقافية.

وهذا نموذج متميز في مجال المقابلة يدل على قدرة فنية عالية لشاعرنا ، ومن مقابلاته الفنية قوله :

يا عين سرّ الحق في أسراره   ياسرّ عين الحق في الاعلان[١].

فقد قابل وطابق بين ألفاظ شطري البيت في قوله (عين سرّ الحق) وقوله (وسرّ عين الحق).

وهو يشير بعين السر إلى حقيقته الخافية في حين يعني بعبارته (سرّ العين) ما يعُلن من المخفي فيها[٢]، وفي البيت طباق واضح في كلمتي أسرار واعلان.

٥- وفي مجال الموسيقى والاوزان وجمالية النغم والصوت التي يحققها الشاعر من خلال بناء ألفاظه وعلاقاتها ، تبرز أمامنا واضحةً ، عنايةُ الشاعر بهذا الجانب وايلاؤه أهمية خاصة باعتماده على أوزان مناسبة وانتقائه ألفاظاً وصوراً بديعة وقافية ذات وقع موسيقي رقيق لين وجميل ، بل كان يعمد أحياناً إلى قوافٍ داخلية وتقطيعات لطيفة لينة داخل البيت الواحد تضاعف من النغم والحركة الصوتية في البناء الشعري فمن أمثلة التقطيعة الداخلية والتقطيعات النغمية والمقابلة بين الاجزاء في البيت الواحد قوله :

سرّ أسرّ به ، في السرّ أسرارُ   بَر أَبَرَّ له في البِرّ أبرارُ[٣].

رِبحٌ لآل هدىً ، حربٌ لأهل ردىً   بحر لسبيل ندىً حِبر بل أحبار

---

(١) نفسه ص٧٨.

(٢) أنظر (قصيدتان رائعتان) ص٥١.

(٣) الديوان ص١٨١.

فكم هي رائعة تلك التقفية الداخلية وتلك النغمات العذبات التـي توجـدها ، وتلك المقابلات وما تضمنته من جناس وطباق وقريب منه قوله :

نور الهدى بحر التُقى بدر النُقى

أضحى له حفظ الاله معينـا[١].

وكذلك قوله :

كْهفُ الورى ، كنَفُ الهدى ، كَشْفُ البلا

غيثُ الندى لاغاثةِ الهيفان[٢].

حلّالَ مشكلةٍ تُعى أهل النهى

دفّاع مُعضلةٍ عن اللهفان

فكان شاعرنا في النصوص السابقة يجري مجـرى أبيـات للخنسـاء فـي الصناعة اللفظية والبناء الشعري ولاسيما استخدامه التقفية الداخلية واستخدام صـيغ المبالغة لاسم الفاعل (حلاّل) و (دفّاع) تقول الخنساء في احـدى مراثيهـا لأخيهـا صخر :

حمّال ألوية هبّاط أودية

شهّاد أنديةٍ للجيش جرّار[٣].

نحّار راغية ملجاءُ طاغيةٍ

فكّاك عانية للعظم جبار

وكان شاعرنا يبدي قدراته اللغوية بما يوفره من كثافة موسيقية في اصطناع قافية صعبة تقوم على أكثر من حرف واحد وهو ما يعرف بلزوم ما لايلزم التـي

---

(١) الديوان ص١٦١.

(٢) الديوان ص٧٩.

(٣) ديوان الخنساء ص٥١ طه.

بدأها العبقري أبو العلاء المعري في لزومياته ، لنسمعه يقول في قصيدة رثاء تائية التزم فيها قافية غير ملزمة فجاء بحرف التاء المضموم قبل الهاء المفتوحة يقول في مطلعها :

أترّحتْ سَنَةً غرّاءَ ضَرّتُهـــــا

أم فَرّحتْ بدعةً ضرّاءَ غِرتُها[١].

وله مرثية أخرى التزم فيها هذا اللون من القافية مطلعها :

عَدتـ شوطها أم ظلَّ فيها وظلتِ

ببطنِ بطينٍ والظلالُ أقلتِ[٢].

وقد نوه الشيخُ ممتاز الأزهري في دراسته القيمة عن شاعرنا[٣] بـأن هـذه القافية المعتمدة على التاء المسبوقة باللام المشددة لم يعثر على نظيرها لدى شعراء العرب سوى عند أبي العلاء في خمسة أبيات فقط ، واعتبر ذلك تفوقاً ومقدرة عالية من شاعرنا إذ سلك هذا المسلك وركب هذا المركب الصعب ، ويظهر شاعرنا فـي مجال الاوزان والقوافي تمكناً وقدرة على ركوب البحور العربية وبنـاء عبـارات سليمة سلسة تقوم على أوزان وقوافٍ لينة جذابة فيها رقة وعذوبةً وان لم تكن مـن أغراض الغزل أو الوصف أو الحنين أو غيرها من الاغراض الشعرية التي يحسن فيها استخدام مثل ذلك الاسلوب ، ولا ينقص من قدرته الابداعية ما سـجله أسـتاذ العروض الشاعر الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي من هفوات على شعره حينما شرح كتاب شاعرنا البريلوي (قصيدتان رائعتان) ، وذلك فيمـا يتعلـق بالتأسـيس وعدمه أو فيما يتعلق ببنية التعابير التي تستوجبها تفعيلات البحر لأجـل اسـتقامة

---

(١) الديوان ص١٦٤.

(٢) نفسه ص١٧٥.

(٣) أنظر : الشيخ أحمد رضا خان ، ص٥٧٤.

الوزن من أمثال تسكين المتحرك أو أشباع حركة معينة في البيت أو تسهيل الهمزة وغيرها[١] وهذه الأمور جائزة عند الشعراء قاطبة فهي ليست عيوباً تقلل من قيمة ديوانه ، ويمكن احتساب تجنب الايطاء في مجال القافية من ايجابيات الشاعر[٢]، وقد أشار هو نفسه إلى ذلك في كتابه آمال الابرار وآلام الاشرار مفتخراً يقول : **((هذه القصيدة – يعني القصيدة الدالية الطويلة – تتكون من سبعين ومائة بيت والحمد لله لم تتكرر فيها القافية ، وما يبدو تكراراً في ظاهر الأمر في بعض القوافي فانه ليس من التكرار في شيء بل هو من باب الجناس حيث يتحد اللفظ ويختلف المعنى))**[٣] وقد تعرض إلى ذلك الشيخ ممتاز الأزهري أيضاً[٤].

وعدّ أيضاً استخدام شاعرنا للقوافي المقيدة[٥] غير المسبوقة بالمدّ من الظواهر الايجابية في شعره لانها تعد من القوافي الصعبة التي يتجنبها كثير من الشعراء العرب ولكن ((شاعرنا المطبوع استطاع أن يأتي بالقافية المقيدة بكل سهولة مما يدل على براعته وطول باعه في النظم بلغته الثالثة)) [٦] فمن ذلك قوله من قصيدة :

أإسماعيل إسماعيل سُنّهْ … أحامي حاله من كُل فتنه[٧]
أإسماعيل إسماعيل صِدقٍ … أرادع كلّ مبنٍ عين فطنه

٠٠٠٠٠٠٠ الخ.

---

(١) انظر : قصيدتان رائعتان ص٢٣-٢٥.
(٢) الايطاء : هو تكرار القافية في القصيدة الواحد ويعد عيباً عند العروضين.
(٣) ، (٤) أنظر : الشيخ أحمد رضا خان ص٥٧٩..
(٥) القوافي المقيدة هي ما يكون حرف الروي فيه ساكناً
(٦) أنظر كتاب الأزهري ص٥٩٠.
(٧) الديوان ص٢٠١.

ولديه على هذه القافية المقيدة عدد من المقطعات[١].

٦- ومن سمات شعر الشيخ البريلوي انه كان يكثر من التصغير في بعض ألفـاظ شعره فمن ذلك قوله :

رنّ الحمام على شجون البان ياما أميلح ذكر بيض البان[٢].

فصغر فعل التعجب (أملح).

وفي القصيدة نفسها نجده يصغر لفظة (شمس) بشميسة يقول :

هل يا هلال العيد عندك خبرة

بشميسةٍ في بدرها قمران[٣].

وصغر لفظة (غلام) بقوله :

غليمُك الوحيد رجا رضاكـــا

إذ أنت العدل والقاضي الوحيد[٤].

وهذا كثير عنده ، وهذه السمة نجدها عند بعض شعراء التصوف من أمثال ابن الفارض فمنه قوله حيث صغر كلمة (غدوة).

سرت فأسرت للفؤاد غُديـــةً

أحاديث جيران العُذيب فسرّت[٥].

وفي القصيدة نفسها رقق ألفاظاً وصغرها في بيتيه الآتيين :

---

(١) أنظر الديوان ص١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢.

(٢) الديوان ص٧٢.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه ص١٢٥.

(٥) ديوان إبن الفارض ص٣٣ دار صادر – بيروت ١٩٦٢م – ١٣٨٢هـ ، غدية ؛ تصغير غدوة أي سحراً، سرت : أي الصبا ، العذيب : اسم ماء ، سرت الاخيرة : من السرور .

لها بأُعيشاب الحجاز تـحرش

بـه لا بخمرٍ ، دون صحبي ، سكرتي[١].

تذكرني العهد القديم لأنها

حديثة عهد من أُهيلِ مودتي

فلفظ أعيشاب تصغير لكلمة (أعشاب) وكلمة أهيل تصغير لكلمة (أهل). وهذا كثير عن إبن الفارض.

٧- ومن خصائص شعر أديبنا انه كان مولعاً في صناعة التاريخ الشعري مغرماً به حتى لتكاد جميع قصائده ومقطوعاته تضم تاريخاً شعرياً لوفاة المرثى أو لتاريخ نظم القصيدة أو أي حدث مهم يرى ضرورة الاشارة إلى تاريخه ، وهذه الظاهرة الشعرية كانت معروفة وشائعة بين شعراء عصره في المشرق اضافة إلى شيوعها عند شعراء الهند والفرس أيضاً. ومن يقرأ ديوانه يلمس انه كان سريع البديهة موفقاً فيما يسجله من تواريخ . ونكتفي لذلك بمثال واحد لان ديوانه مملوء بهذه الظاهرة ، قال في تاريخ رحيل فضيلة الإمام الشيخ السيد مجتبى حسن عام (١٣١١هـ) وقد مهد للشطر المقصود بالتاريخ بلفظة (أرخ) وهي صيغة معروفة بين الشعراء :

أكرم بحج سيدنا المجتبى حسن[٢].

انّ الكريم وافده مُجتبى حسن

أرّخ رِضا لموت غريب عن وطن

قال المراد من كرمِ المُجتبى حسن

([١]) نفسه ، تحرش : تحكك.

([٢]) الديوان ص٢٠٠.

وفيه اشارة إلى ان المرثى كان قد عاد مؤخراً من أداء فريضة الحج وأدركته منيته في مدينة بومباي قبل وصوله إلى وطنه.

٨- ومن الملامح الفريدة التي تميزّ بها شاعرنا عن شعراء العرب خاصة انه كان يذكر اسمه الشعري الذي اعتمده في قصائده وهو اسم (رضا) الذي يشير إلى طلب رضا الله تعالى أو نوال الرضا ، فكان يصرح بذلك الاسم في كثير من قصائده وهي ظاهرة جديدة غير معروفة عند غيره من ناظمي الشعر (العربي) من ذلك مثلاً ما قرأناه في النص السابق ، ومنه أيضاً قوله :

قم يا رضا لا تغش أهل غشاوةٍ

ذرهم وماهم فيه من خِذلان[1].

٩- وعلى العموم فان شاعرنا كان متمكناً من بناء شعر متماسك متين يتسم بالسلاسة والسهولة واليسر ويقوم على ألفاظ فصيحة بعضها جزل ، ويلتحم بنسيج خاص ، ويلتزم بكثير من قواعد وأسس بناء القصيدة العربية التقليدية وأساليبها ومنهجها من براعة الاستهلاك وحسن المطلع[2] ومن جودة الانتقال وذكاء التخلص[3] وجمالية الختام وبراعته[4]، اضافة إلى استخدامه الحوار في بعض

---

(١) الديوان ص٧٧.

(٢) أنظر قصائده الطوال وبخاصة قصيدته النونية الطويلة ، الديوان ص٧٢.

(٣) أنظر الديوان ص٧٧ : قوله : قم يارضا لا تغش أهل غشاوة ..الخ.

ص٧٣ : قوله : بعد مقدمة غزل : دع عنك هذا لست أهل بطالة ..الخ.

(٤) أنظر : كتاب الأزهري : الشيخ أحمد رضا خان : ص٥٨٨ حيث أشار إلى أن الشاعر تأثر بخواتيم السور القرآنية وانه كان يورد آخر قصائده بما يشير إلى النهاية كأن يختمها بدعاء له أو لغيره منه قوله:

إلهي اليك بالحبيب توسلي   به فاغفر اللهم ذنبي وزلتي

الديوان ص١٧٧.

قصائده[١] ورد العجز على الصدر[٢]. كما انه كان يخرج عن صيغة القصيدة العمودية إلى الرباعيات[٣] والخماسيات[٤]... إلى غير ذلك من طرق وأساليب عرفها الشعر العربي أو كانت معروفة ومتبعة في الشعر الاوردي أو الفارسي وعلى كل حال فان شعر الرضوي ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ورضوانه ، كان يتسم بشكل عام بالوضوح والسلاسة والرقة والمعاني الشريفة الطاهرة المشبعة بروح الدين وبسيماه النقية التقية.

ثانياً : القصيدة الرضوية مضموناً :

١- لقد حرص شاعرنا على تحقيق التوازن بين المبنى والمعنى ، واقامة بناء فني متكامل في قصائده الطويلة خاصة ، وقد تعرفنا في دراستنا السابقة على الجانب الخارجي للقصيدة وما يتعلق به من ألفاظ وعبارات ومن محسنات بلاغية وملح وجماليات تعطى رونقاً ورشاقة للبناء الشكلي للعمل الفني ، ولكن الشاعر لم ينس أحشاء القصيدة ومحتواها ولم يهمل مضامينها التي تؤصل النظم الشعري وتعمق معانيه مع الحفاظ على الوضوح وانسيابية المحتوى وبعده عن الغموض والابهام اضافة إلى حرصه على شرف المضمون ونبله وهذا أمر متوقع من شاعر ملتزم بعقيدة الإسلام ومنهجه وقد نذر نفسه لخدمة الدين والدفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين ، فكانت جلّ قصائده نفحات إيمانية ونغمات من الدعاء والتوسل والابتهال ، وكان بعضها في مديح أنصاره من أهل السنة والجماعة وفي تبيان سماتهم الإسلامية النقية ومواقفهم القوية وتقواهم الصمدية .. ولكنها في الوقت نفسه،

---

(١) ينظر الديوان ص١٨٣-١٨٤.

(٢) أنظر الديوان ص٧٣ منه قوله : **أزمان فاقت ، بيد أن عشيقتي بزمانها فاقت على أزمان**

(٣) الديوان ص٢٠٧-٢٠٨.

(٤) نفسه ص١٧١.

قدحات نارية تحمل الشرر إلى أولئك الذين ابتعدوا عن العقيدة المحمدية السليمة واتبعوا أهواءهم فلعنوا في الدنيا والآخرة ، ولكن الشاعر حتى في هجائه لم يبتعد عن السلوك العام والخلق الإسلامي الرفيع فكان هجاؤه بعيداً عن الاسفاف والابتذال والسباب. ان شعراً ينبثق عن عواطف ومشاعر انسان يهتدي بهدى القرآن الكريم ويتخلق بأخلاق الرسالة السماوية المحمدية لابد أن يوصف بأنه شعر إسلامي ، ولابد أن تتعطر ألفاظه ومعانيه وأن تتجمل مبانيه وأفكاره بنفحات ايمانية إسلامية ، وان نتلمس الأثر القرآني في صياغته وفي بواطنه ومضامينه فان المنهج الإسلامي يستوجب أن يكون للشعر غاية نبيلة ووظيفة اجتماعية تربوية وأن يقدم أفكاراً نافعة ومفيدة وألا يفقد الشعر قيمته ويغدو مجرد كلام منظوم ولغو لا فائدة منه ، وللنبي محمد ﷺ حديث يشير إلى هذه الوظيفة الاجتماعية المهمة والخطيرة يقول ﷺ ***[الشعر كلام فما وافق الحقَ فهو حسن وما لم يوافق الحق فلا خير فيه..]***[1].

فغاية الشعر الإسلامي هو ما يقدمه من فيض قيمي وأخلاقي وتربوي في اطار ابداعي وبناء لفظي بلاغي تطوف به أطياف الروعة والبهاء .. فهو اذن حريص على جمالية الفن حرصه على حشو هذا الفن بمفاهيم قيمية عالية ، فتلمس في محتواه ((قيم الحق والخير والمسؤولية والواجب والالتزام والعدل والحقيقة ، فيسموا الأدب الإسلامي، ومنه الشعر ، بما يقدمه من جمال قيمي أو قيم جمالية تؤدي إلى وضوح الطريق وحسن الاختيار وجمال العقل وسمو البناء الروحي والمادي))[2].

وهذه الخصائص للشعر الإسلامي تتجلى بوضوح في أدب شاعرنا ، ولاجل أن نحدد سمات شعره من حديث المعنى والمضمون علينا أن نقف في دراستنا لهذا

---

(١) أنظر : مفهوم الأدب الإسلامي – المعنى والوظيفة ص١٢٤ ، للدكتور جاسم محمد الفارس.

(٢) نفسه ص١٣٧.

الجانب عند نبل المعنى وشرف المضمون أولاً ثم وضوح المحتوى ويسره وجلائه ثانياً.

١- ان القاعدة الأساس التي كان يؤسس عليها شاعرنا أدبه تقوم على قيم إسلامية ثابتة تتلخص في المقولة الآتية ((**أحبب لله وابغض لله تنال رضا الله**)) فكان مديحه لعلماء الهند بشكل خاص ممن أحبهم لله والتقى بهم فكرياً وعقائدياً .. فليس له من المديح الشخصي الا النزر ، وكذلك هجاؤه لاشخاص ممن اعتقد أنهم انحرفوا عن جوهر الدين وجادة الحق فهو يبغضهم لله تعالى.

ويرى أن من واجبه أن يتصدى لهم وأن يعلن رفضه لمبادئهم وأفكارهم وطروحاتهم التي تضل الآخرين وتسيء إلى الدين الحنيف ولكنه لم يبتعد عن الخلق الإسلامي الرفيع، فكان أسلوبه في معظم أهاجيه أسلوب الناصح الواعظ فهو مثلاً ، حينما هجا الشيخ عبد الباري فرنجي محلي خاطبه بكل ((احترام واجلال .. وذكّره ببعض آيات قرآنية))[1] لكي يرتدع ويصحح موقفه ويرجع إلى الصراط السليم ، وبالفعل كان لهذا الاسلوب وهذه الطريقة في التعامل مع المناوئين أثرها الكبير في استجابتهم لدعواته وعودتهم إلى سبيل الله فقد ذكر أن الشيخ عبد الباري فرنجي محلي ((قد أعلن توبته ورجوعه عن الأقوال التي كان تحدث بها وأعلن صحة كل ما ذكره فضيلة الإمام المجدد محمد أحمد رضا خان من آراء وأقوال وفتاوي))[2].

ولسنا بحاجة إلى ايراد نماذج من مدائحه وأهاجيه التي يتضح فيها منهجه القويم وأسلوبه الإسلامي الرصين ، فقد تعرضنا لذلك في دراستنا السابقة عن أعراضه الشعرية.

---

(١) أنظر ديوانه ص١٨٧.

(٢) أنظر ديوانه ص١٩٠.

وقد مرّت بنا عناية الشاعر في بناء قصائده وتضمينها نصوصاً من التراث أو اقتباساً من الكتاب الكريم ومن الحديث النبوي الشريف وهدفه في ذلك أمران أحدهما هو تجميل المظهر وتحسين رداء القصيد وتلطيف جرسه ووقعه .. وثانيهما، وهو الذي يهمنا هنا ، تعضيد المضمون وتقويته وإسناد الفكرة وتعزيز الرأي وبذلك يأخذ المحتوى بعداً جديداً وعمقاً ثرياً .. وبالتالي تتوافق القصيدة وتتناغم وتتناسق بين طرفيها الاساسيين الشكل والمضمون واللذين يمثلان ، كما قلنا (وجهين لعملة واحدة) ، وباختلالهما أو تنافرهما يفقد النصّ كثيراً من قيمته ومن أصالته وجدته ، وقد كان لنا في الفصل السابق وقفة عند مجالات اقتباساته وتضميناته مما يعزز رأينا هذا.

٢- وخاصية أخرى لمعاني شعر أديبنا هي بساطة الافكار ووضوحها وسهولة فهمها ، فما اعتاد الشاعر أن يوغل في الابهام رغم ثروته اللغوية وسعة محفوظاته التراثية واطلاعه الواسع على أدب العرب قديمه وحديثه ، فكان يتجنب الغريب العويص ويستخدم مفردات واضحة سهلة سلسة ، وهذا أمر متوقع وخاصة وان بعضاً من شعره عبارة عن رسائل إلى أصدقائه أو بطاقات تهنئة أو برقيات تعزية فهذه الموضوعات لا تتطلب عمقاً أو تأملاً وتفلسفاً ، ولا تستوجب الايغال في المعاني والألفاظ .. وهو أيضاً في قصائده الطويلة التي هي ملاحم قتال ونضال ضدّ أعداء المسلمين من الجمعيات والأحزاب التي اتخذت من الإسلام ستاراً لحركاتهم المشبوهة والمتعاطفة بل والمتعاونة مع أعداء المسلمين وأعداء وطنهم (الهند) من الانكليز الذي استعمروا البلاد وأشاعوا فيها الفساد ، فمن نماذجه السهلة الواضحة أبياته التي هي عبارة عن بطاقة عتاب أرسلها شاعرنا إلى فضيلة الإمام الشيخ صالح كمال المكي يعاتبه فيها على انقطاعه عن عيادته ليومين متتاليين وكان مريضاً:

هذان يومان ما فزنا بطلعتكـــم ولو قَدرنا جعلنا رأسنا قدمـــا[١]

قالوا لقاء خليلٍ للعليل شفـــاء ألا تحبون أن تُبروا لنا سقمـــا

عودتمونا طلوع الشمس كل ضحىً وهل سمعتم كريماً يقطع الكرما؟!

فكم هي جميلة تلك الأبيات بألفاظها وسمتها وبمعانيها وحشوها .. وكم هي عتاب رقيق من قلب محب صادق في أخوته !!.. ولننظر في نموذج آخر من بديع غزله وجمال صوره حيث يقول في مقدمة طويلته النونية :

رنّ الحمام على شجون البـــان ياما أميلم ذكر بيض البان[٢]

تبكي دماً وتقول في أسجاعها اللهُ يُضحك سنّ من أبكاني

••••••

هل يا هلال العيد عندك خُبــرة بشميسة في بدرها قمران

••••••

ما مضمضت عيني بنومٍ مذ مضت وكذاك كل مفارق الخُــلان

•••••

تمشي وتغشاها الصّبا فكأنها غصن سويّ مائد متهـــان

واهاً اذا أدْنت ودانت للقـــا آهاً إذا أذنت لهجـــرٍ آن

فهذه الأبيات تحمل أكثر من صورة وأكثر من لفظة بديعة جميلـــة ، ففـــي البيتين الأولين يستثار شاعرنا وترقّ مشاعره فتهيج لديه عواطـــف الحـــب والالـــم تجاوباً مع شجى حمامة حزينة أهاجه لديها الفراق والتشوق فبكت عيونهـــا دمـــاً .. واشتد بها الجوى وارهقتها الذكرى والصبابة ولكنها مع وصفها الحزين ذاك نـــدعو لمن ذكرها وأثار لديها الهيام والشوق بان يجزه الله السعادة والرضا ويدخل الفـــرح

---

(١) الديوان ص١٥٩.

(٢) نفسه ص٧٢.

إلى فؤاده وتضحك ثناياه .. ولان الشجى يبعث الشجى ولان الحزن والدمع يهيجان الاشجان والاحزان .. فقد تداعت أسجاع تلك الحمامة همـوم الشـاعر وأحزانـه وأثارت لديه الذكريات المؤلمة لحبه وصبابته .. فيلتفت ليرسم لنـا وجـه حبيبتـه ويصور جمالها وروعتها التي تنفرد بها فهي شميسة بدفء نورها وروعة ضيائها ولكن وجهها الذي يشبه في استدارته بدراً منيراً يضفي عليه البهاء والجمال قمران رائعان .. انهما الحاجبان اللذان يرتسمان فوق العينين وكأنهمـا الهلالـين ولكـن الشاعر عبر عنهما بالقمرين ، ولا أراه موفقاً في ذلك ولعله يقصد بالقمرين الخدين وهذا أقرب وبذلك تكون هذه الصورة جديدة مبتكرة[١] وكـم هـو جميـل وفـائق استخدامه للفظة (مضضت) في البيت الرابع من النص حيث نقل معنى الكلمة الذي هو عادة يستخدم للفم وتحريك الماء فيه لغسله وتنقيته نقله الشاعر إلى العينين فهما يقظتان لم يغتسلا بالنعاس ولم يعرفا النوم أو الكرى .. فهو صاح متوفز الحـواس والمشاعر بسبب فقدانه الراحة وهدوء البال وبسبب الفـراق والبعـد ... ويتـذكر شاعرنا صورة حبيبته وهي تتهادى بمشيتها وتميد وتتمايل كأنها الغصن يميل مـع نسمات الصبا ، ويرسم معاناته وعواطفه في حالتي الرضا والصدّ واللقاء والهجر .. فواه له حينما تصفو وتدنو وآه له حينما يحين هجرها ويدنو بعدها.

وهكذا يرق الشاعر في غزله ويعذب ويُحسن استخدام المفـردات الشـعرية الجميلة ويميل إلى صيغة التصغير ليزيد نصه رقةً ورهافة .. ياما أميلح ، بشميسة، وغيرهما.. ولا حاجة للاشارة إلى المحسنات البديعية في النص من جناس وطبـاق ومقابلة.

وليست هذه الخاصية مقتصرة على غرض معين من أغراضه الشعرية بـل نجدها ظاهرة بارزة في عموم أغراضه ، ففي شعر التوسلات والمناجاة تبرز هـذه

---

(١) أنظر : كتاب الأزهري ص٥٧٧، الهلال أول ليلة والثانية والثالثة ثم هو قمر.

السمة فتعذب معاني شعره وتغدو بسيطة واضحة متجاوبة مع مشاعر المتلقى دون نبوٍ أو ابهام أو غرابة لنسمعه يقول مثلاً في قصيدته الدالية الطويلة :

ياربّ ، يا رباه يا	كنز الفقير الفاقد[1]
بك ألتجي بك أدفعُ	في نحر كلّ مهدِّد
أنت القوي فقوني	أنت القدير فأيّد
فالى العظيم توسلي	بكتابه وبأحمد
وبمن أتى بكلامه	وبمن هدى وبمن هُدي

ونسمعه في نونيته الطويلة يستغيث بالشيخ عبدالقادر الكيلاني قائلاً :

ياغوثنا قلبي يجود بنفسه	ونداك خيرُ ندىً على المَوَتان[2]
أيصيبه موت وأنت مسيحه	ومحيي دين الله لا ينساني
جدّ لي بما أملته ياموئلي	ياروح دينٍ أطيب الأديان
ان كان أرضي صفصفاً قاعاً فلا	باس ولا يأس من الإغضان
فالقفر ليس بمقفرٍ من جودكم	والجود لا يختص بالبستان
كم زهرة بَسمتْ بغيثٍ في الفلا	كشقائق النعمان والظيان[3]

انها صورة رائعة للكرم والجود والعطاء .. حتى لكأن الممدوح يمتلك قدرات المسيح عليه السلام في برئه للابرص والمجذوم وفي شفائه للمرضى والعميان بل والموتى كذلك فهو بلسم الجراح وهو مرهم كل الادواء .. يمسحها فتشفى ويدعو لها فتحيا ، فبجود هذا الممدوح أو المستغاث به تتحول القفار إلى حدائق زاهية

---

(١) الديوان ص٥٩.

(٢) الديوان ص٨٣.

(٣) الموتان : ضد الحيوان ، قاع : أرض بلا ماء ولا شجر ، الإغضان : المطر الدائم ، الظيان : ياسمين.

وبساتين غناء .. واغداقه وعطاؤه لا يختصان بالرياض والبساتين وانما يشملان أشياء أخرى ومواقع ثانية تحتاج إلى ذلكم الفيض والندى ، والأبيات عموماً تتضمن صوراً بسيطة صادقة فيها عفوية وانسيابية ولا تخلو من المبالغة التي تتطلبها الاستغاثة.

ولم نلمس في أفكار الشاعر أو مضامينه غموضاً أو تعقيداً في المعاني ولا إغراباً أو إبهاماً ولعل مرجع هذه البساطة والوضوح والتجلي التي تصطبغ بها مضامين شعره تعود إلى مقصد أدبه وهدفه ورسالته فهو يخاطب الناس وجماهير المسلمين في الهند ، فلا يتحمل المخاطب لغة عربية عويصة أو أفكاراً غامضة مبهمة ، كما انه حاول أن يأتي ببعض أفكاره ومفاهيمه ومضامينه من المعاني القرآنية والإسلامية وأن يضفي قدر الامكان الاجواء الدينية على أدبه ، لانه يحمل رسالة الإسلام في مدحه أو في هجائه بل وفي كل أغراضه التي تطرق إليها، فهو حينما يبعث بطاقة شعرية إلى السيد أبي الحسين أحمد النوري مؤرخاً ومقرضاً كتابه ((سراج العوارف في الوصايا والمعارف)) يشبه الكتاب بانه نور وشهد بل هو سراج منير يكشف الصراط المستقيم والدرب القويم للمسلمين في ليلهم المظلم الذي أناخ عليهم جراء مظالم الاستعمار وطغيان الانحراف والكفر والظلم : فكأنه الشمس الساطعة الكاشفة للحقيقة في كبد الليل[1] ومن العجائب أن تشرق شمس وسط الليل – يقول :

كلامك نور بهاءِ السلاسل	**وشهد مصفى عن الزيغ صارف**[2]
وتحقيق ترويح كشف القلوب	**دليل اليقين سراج العوارف**

---

(1) أنظر : الديوان ص١٩٥.

(2) نفسه.

ولا غرو أن جاء منك سراج

فانك **نوريٌّ ناد المعارف**

أرانا سراجك **بالليل شمساً**

وشمس بليلٍ عجيب وطارق

ولا يخفى على القارئ جمال التورية في البيت الثالث .. فالمؤلف اسمه نورى.. وهو بعلمه وفكره منارة علم ونور تشرق على نادي العلماء وأهل المعرفة.

أما قصيدته التائية التي سبق لنا دراستها والتي كانت في الرثاء وأقامها على قافية صعبة التزم فيها مالا يلتزم والتي مطلعها :

عدت شوطها أم ظلّ فيها وظلت ببطنٍ بطينٍ والظلال أقلت[1].

فهي من النصوص النادرة والفريدة في ديوانه ، ولعل الغموض والابهام والهمهمات التي صبغت بها مقدمة القصيدة جاءت بدوافع موضوعها وحالة النزوع الروحاني ومناجاة النفس بتهويماتٍ صوفية ، وبرهبةٍ قدسية أمام الموت. فكان ذلك المناخ الصوفي الذي طغى على مقدمة القصيدة وأعطاها بعداً فلسفياً وعمقاً في محتواها ، وغموضاً في بعض ألفاظها وتعبيراتها .. يوحي باستخدامات الشاعر مصطلحات أهل الخلوة أو الطريقة من الصوفية والزهاد .. بحيث لا يمكن لأحد تحليلها وفهمها الفهم الحقيقي الا لمن عاش تلك الاجواء وعانى ذلكم السلوك ، وأرى أن هذه القصيدة موجهة إلى روح المتوفى الذي كان هو الآخر صوفياً من أهل الطريقة فكان الشاعر يناجيه ويخاطبه بلغة يفهمها وباشارات يعي مرامها ومقصدها، وهي على كل حال قصيدة فريدة وحيدة في الديوان ويعزز رأينا في انها من القصائد التي تعمد فيها الشاعر أن يعيش أجواء أهل الطريقة وأن يعاني معاناتهم ويتكلم بلغتهم وألغازهم ومصطلحاتهم ان هذه القصيدة كانت مطبوعة ومنشورة

---

(١) الديوان ص١٧٥.

ضمن كتاب ((مواقع النجوم ومطالع أهلة الاسرار والعلوم)) للشيخ محيي الدين بن العربي شيخ الصوفية ، وامام الطريقة[١].

(١) أنظر : الديوان ص١٧٨.

الخلاصة والنتائج

بعد هذه المرحلة الشيقة والممتعة التي تعرفنا من خلالها على تفاصيل حياة هذا الشاعر العبقري الإمام محمد أحمد خان البريلوي البركاتي وعلى فنونه وعلومه المنوعة ووقفنا بتأمل وتأنٍ عند شعره في ديوانه العربي بعد الالمام والاطلاع على أشعاره الأوردية المترجمة في ديوان ((صفوة المديح)) يحسن بنا أن نقدم خلاصة عن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة :

١- نشأ شاعرنا في بيت علم وأدب ودين وورع.. فتلقى منذ طفولته العلوم الإسلامية والعربية على يد والده وجده حتى برع فيها وأتقن عدداً من العلوم وجلس للفتوى وهو لما يزل دون الرابعة عشرة من عمره.

٢- برزت ، منذ السنوات الأولى من عمره ، عبقريته وذكاؤه الحاد وقدرته الفائقة على الحفظ وعلى الاسترجاع فكان يكفي أن يقرأ النص مرة أو مرتين ليحفظه ويستوعبه.

٣- كان منوع العلوم والمعارف مبرزاً في العلوم الدينية من فقه وعقائد ومنطق وفلسفة، وفي العلوم اللغوية أتقن العربية والفارسية إضافة إلى لغته الأم (الأردية) ونظم فيها الشعر وكتب النثر. كما برز في علوم صرفة غير ما سبق من رياضيات ولوغارتمات وفلك ، بلغت ستة وخمسين فناً وعلماً.

٤- كان زاخر النتاج والتأليف في تلك العلوم والمعارف فألف أكثر من ستمائة كتاب باللغات الاردية والعربية والفارسية وقيل بلغت مؤلفاته الألف كتاب .. نشر منها لغاية اليوم أكثر من ثلاثمائة عنوان.

٥- ترجمت بعض مؤلفاته إلى لغات أخرى غير الأردية مثل الهندية والفارسية والعربية والانكليزية وغيرها.

٦- كان له تأثير كبير في الوسط العلمي والسياسي في الهند فكانت له صولات وجولات ضدّ الانكليز المستعمرين لبلده (الهند) وضدّ أولئك المتعاونين معهم من الجماعات الإسلامية المنحرفة ، كما له وقفات ومقاومة للبدع والمنكرات السائدة آنذاك في عصره.

٧- جمع شعره في اللغة الأردية ونشر بعنوان ((حدائق بخشش)) وترجمه إلى العربية الدكتور حازم محمد أحمد المحفوظ ونقله إلى الشعر العربي الدكتور حسين مجيب المصري وهو في الأصل بعنوان (حدائق بخشش) ونشر تحت عنوان (صفوة المديح).

اما ديوانه باللغة العربية فقد جمعه ورتبه وحققه الأستاذ حازم محمد أحمد عبد الرحيم المحفوظ ، ونشر في مجمع بحوث الإمام أحمد رضا في باكستان تحت عنوان ((بساتين الغفران)).

٨- توزع شعره في أغراض عدة هي المديح النبوي ، المديح السياسي والشخصي والفخر والهجاء والرثاء وقد خلا من غرض الغزل ومن غرض الوصف رغم هيامه وحبه للطبيعة التي جاءت صورها موزعة ضمن أغراض أخرى.

٩- غلبت على شعره سمات الوضوح وتجنب الحوشي والغريب من الألفاظ والمعاني .. ويميل أحياناً إلى المحسنات البلاغية من بديع وبيان ، ويستعين بثروته الثقافية الواسعة في تأصيله وتمتينه.

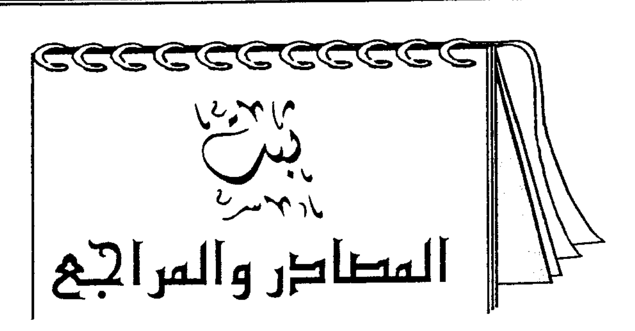
١٠- أما في مضامينه وحشوه فهو يعتمد شرف المعنى ونبل الفكرة مع بساطتها ووضوحها وعدم اغترابها أو ابهامها وغموضها ، فشاعرنا أحمد رضا خان يكره التعقيد والتصعيب والتقعر في المبنى والمعنى .. لانه يخاطب الجمهور والعامة من الناس فلابد من التبسط ومن تناول المعاني القريبة إلى أذهانهم وأفهامهم .. فهو صاحب رسالة مقدسة وطريقة نبيلة تتطلب منه اعتماد ذلك الأسلوب وركوب ذلك المنهج السلس.

١١- لم يكن أديبنا الإمام أحمد رضا خان شاعراً فقط وانما كـان شـاعراً وأديبـاً وعالماً وفقيهاً وفيلسوفاً ورياضياً وفلكياً فهو عقلية نادرة وفريدة قلّ نظيرها في الهند وفي غيرها من بلدان العالم وعليه يمكن أن تقوم عليه دراسات وبحوث وأطـاريح عديدة وكثيرة .. فهو في كل علم وفي كل موهبة شخصية متكاملة تحتاج إلى درس خاص بها.

فـي الختام نرجو أن نكون موفقين في تحقيق غاية هذا البحث وفي الوصول إلى أهدافه التي رسمناها له ، وهي التعريف بهذه العبقرية وتقديمها إلى أبناء العالم الإسلامي بصورة سلسة واضحة محببة .. وما التوفيق الا من عند الله تعالى.

بغداد

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م



- القرآن الكريم.

١- **الإمام محمد أحمد رضا خان والعالم العربي تأليف حازم محمد المحفوظ**، طبعة رضا ونديش ـ لاهور ـ باكستان ط٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢- **بساتين الغفران : الديوان العربي للشيخ محمد أحمد رضا خان البريلوي** ـــ جمع وتحقيق السيد حازم محمد أحمد محفوظ ـ طبع أكاديمية رضا ـ مجمع بحوث الإمام أحمد رضا ـ كراتشي ـ باكستان ـ ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٣- **تيارات أدبية : الدكتور إبراهيم سلامة** ، ط. مطبعة أحمد مخيمر ـ القاهرة ١٩٥٢م.

٤- **جدّ الممتار على ردّ المحتار المعروف بحاشية الشامي تأليف الإمام أحمد رضا خان القادري البريلوي** ، صححه وحققه أعضاء المجمع الإسلامي بمباركفور أعظم كره الهند ، الناشر ـ ادارة تحقيقات امام أحمد رضا ـ كراتشي ـ باكستان ط٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٥م.

٥- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي** ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٠م.

٦- **ديوان إبن الفارض ، أبو حفص عمر بن أبي الحسن الحموي المصري** ، دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.

٧- **ديوان الاعشى الكبير** ، **شرح وتعليق الدكتور م. محمد حسن** ، مكتبة الآداب بالجماميز ـ القاهرة ـ المطبعة النموذجية ، التاريخ ـ بلا.

٨- **ديوان الحماسة : لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي** ، تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد صالح ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٠م.

٩- **ديوان الخنساء : تماضر بنت عمر بن الشريد السلمي** ، ط٥ ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ـ ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

١٠- **سنن الترمذي للإمام عيسى محمد بن عيسى الترمذي** ، ط. مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر ١٣٨٥هـ .

١١- **شرح ديوان امرئ القيس** ، منشورات دار الفكر ـ بيروت ١٩٦٨م.

١٢- **شرح ديوان كعب بن زهير صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري** ، نشر الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

١٣- **الشعر في ظل بني عباد بالأندلس** ، **الدكتور محمد مجيد السعيد** ، مطبعة النعمان النجف ـ ١٩٧٢م.

١٤- **الشعر في عهد المرابطين والموحدين** ، **الدكتور محمد مجيد السعيد** ، ط٢ ـ الدار العربية للموسوعات ـ بيروت ١٩٨٥م.

١٥- **الشعر والتأمل : روستر يفورهاملتون** ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوي، مصر ، طبعة الدار القومية العربية ١٩٦٢م.

١٦- **الشعر والتجربة : ارشيبالد كليش** ، ترجمة سلمى خضراء الجيوسي ـ بيروت دار اليقظة العربية ١٩٦٣م.

١٧- **الشيخ أحمد رضا خان البريلوي الهندي ، شاعراً عربياً للشيخ ممتاز أحمد سديدي الأزهري** ، مؤسسة الشرف ـ لاهور ـ باكستان ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٨- **صحيح البخاري** ـ دار ومطابع الشعب ـ القاهرة.

١٩- **صحيح مسلم** ، ط١ ، مصطفى البابي وأولاده مصر ١٣٧٧هـ .

٢٠- **صفوة المديح (حدائق بخشش) : الديوان الأردي للشيخ محمد أحمد رضا خان البريلوي** ، ترجمة الدكتور حازم محمد أحمد المحفوظ ، ونقله إلى الشعر العربي الدكتور حسين مجيب المصري ، وهو في الأصل بعنوان (حدائق بخشش) ـ دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢١- **العمدة لابن رشيق** ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ط . المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٣٧٤هـ.

٢٢- **في النقد الأدبي** ، **الدكتور كمال نشأت** ، النجف ـ مطابع النعمان ١٩٧٠م.

٢٣- **قصيدتان رائعتان : للإمام أحمد رضا خان القادري البريلوي** ، تحقيق وشرح الأستاذ الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي مطبعة الطيف للطباعة ـ بغداد ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢٤- **كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري** ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ـ القاهرة ـ دار احياء الكتب العربية ١٩٥٢م.

٢٥- **مسند أحمد بن حنبل** ـ دار صادر ـ بيروت التاريخ ، بلا.

٢٦- **المنظومة السلامية للإمام أحمد رضا خان** ، ترجمة حازم محمد أحمد المحفوظ ، شرحها ونقلها شعراً إلى العربية الدكتور حسين مجيب المصري، مركز أهل سنت بركات رضا ، فور بندر غجرات الهند ط١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٧- **من هو أحمد رضا البريلوي ؟ الأستاذ شجاعت علي القادري** ـ أكاديمية رضا ـ لاهور ـ باكستان ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٢٨- **النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، الدكتور عبد الحكم بلبع** ، القـاهرة ــ لجنـة البيان العربي ط٢ ، ١٩٦٩م.

٢٩- **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر** ، العلامة الشريف عبد الحـي بـن فخر الدين الحسني الندوي ، قام بمراجعته واكماله إبن المؤلف السـيد أبـو الحسن علي، الجزء الثامن ــ كراجي ــ التاريخ بلا.

